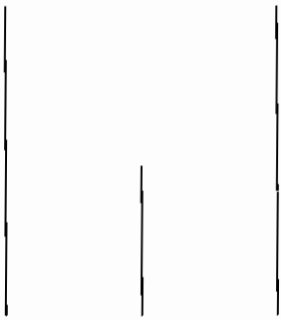

المخفرة

(مكانتها ـ شمولها ـ أهلها)

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة
آداب إسلامية
(٣)

المغفرة

(مكانتها ـ شمولها ـ أهلها)

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾

[النجم: ٣٢]

تأليف
أحمد خليل جمعة

الطبعة الأولى

1423هـ - 2003م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] ، أنزل القرآن الكريم مُبشِّراً المؤمنين بفضل الله سُبحانه ، وعظيم عفوه ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] ، يوم تبيضُّ وجوهُ المتَّقين ، فتبدو غراء مُستبشرة ، إنَّ في ذلك ذكرى لمن ألقى السَّمع وموعظةً وتذكرة .

اللهمَّ اغفر لنا ذنوبنا ، وكفِّر عنّا سيِّئاتنا ، وتوفَّنا مع الأبرار .

اللهمَّ اجعل ثقتَنا بعفوك لا تُحدّ ، وارزُقنا إيماناً لا يرتدّ ، وامنحنا أعمالاً صالحةً تشفعُ لنا يومَ العرض عليك ، يا أرحم الراحمين .

اللهم صلِّ على سيدنا محمد ، سيِّد المستغفرين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين .

أمّا بعد :

فمن صفات الله عز وجل أنه غفورٌ للذنوب ، يُظهر الجميل ، ويستر القبيح في الدنيا ، ويتجاوز عن العقوبة في الآخرة .

والإنسانُ في رحاب الحياة مُعرَّضٌ للوقوع في الذُّنوب ، وملامسة المعاصي ، فالنّفسُ أمَّارة بالسوء ، والشهوات مستشرية في خضم الواقع ، فمن أخطأ طريق الحق ضلَّ ، ومن نأى عن الضَّلاح زلَّ ، فالذُّنوب جراحاتٌ عميقة تحفرُ في أعماق الإيمان ، والسَّعيد من عصى النفس ، وحارب الشيطان بالتمسُّك بأحكام القرآن ، والاعتصام بوحي السُّنَّة ، وعند ذلك تتسنَّم محبة الله عرشَ القلوب ، وهي النُّور الذي إذا دخل الفؤاد أنار الظُّلمة ، ونشر البهجة ، وكشف الغمّ ، وعندها يطلبُ العبدُ من مولاه أن يصفح عنه ، وأن يغفر له تقصيره ، وأن يُثبِّته على طريق الخير والحق ، فأمواج الشرِّ متلاطمة ، قد تجرفُ المرء بعتوِّها ، ولاسيَّما إن رافق ذلك رقدة الغفلة ، وتيه الفكر ، والبعد عن الله عز وجل .

وإزاء هذا الأمر كان هذا الكتابُ رحلة موفَّقة ـ إن شاء الله ـ مع مفهوم المغفرة في رحاب القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهَّرة ، ودراسة لحياة الأنبياء ، وسرد أخبارهم مع عفو الله سُبحانه ، كقصَّة النبي آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، ويوسف ، وموسى عليهم السلام .

كما فصَّلنا القول عن محاسن الاستغفار ، وضروراته ، ومكارمه ، وأسبابه ، مع إيراد رقائق من الحِكَم والأشعار في المغفرة ونفحاتها ، والمناجاة وأدعيتها ، ففي ذلك الخير كلّ الخير ؛ لمن اقتفى آثار الأنبياء والصحابة والصالحين ، فلهم فَضْلُ السَّبْق والكمال ، ومن سار على نهجهم فالوعدُ قائمٌ بالاستقامة على درب الصَّلاح ، مع حُسْنِ الإخلاص ، لنيل ثواب الله ، وهو الجنَّة المشتملة على المغفرة الواسعة .

قال اللهُ عز وجل : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ٢٩] .

وثمَّة همسة أهمسُها في أُذُن القارىء الكريم ، ومفادها : أن يتَّصل القارىء على الدوام بالله الغفور ، ولا يشرد عن

الحق ، وليكن على ثقةٍ تامَّةٍ بعفو الله وصَفْحه ومغفرته ، فمهما تعاظمت الذنوب ، فعفو الله أوسع ، ومن أقبل على ربِّه أقبل الله عليه ، فغفر ذنبه ، ونوَّر قلبه ، وأثابه الخير العميم في الدُّنيا والآخرة .

اللهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغَ أعيننا ، واجعلنا نتغلَّب على شهواتها ومغرياتها ، وأن نستشعر بالنُّفرة من الذنوب ، والإقبال على الحق وأهله .

اللهمَّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

والحمد لله ربِّ العالمين

الباب الأول

المغفرة في أفياء
كتاب الله وأسمائه الحسنى

الفصل الأول : المغفرة في رحاب القرآنِ واللُّغةِ .

الفصل الثاني : الله الغافرُ والغفور والغفّار .

الفصل الثالث : من معاني اسم الله : الغافر .

الفصل الرابع : من ثمرات اسم الله : الغافر والغفور والغفّار .

الفصل الأول

المغفرةُ في رحابِ القرآن واللغة

* ما أجمل الحياة في ظلال المغفرة!!

* وما أجمل المغفرة! والغفران!!

* إنّها هديةُ الخالقِ الغفّار لعباده الذين عرفوا طريق المغفرة فسلكوها ، لمّا علموا سعةَ ميدانها .

* ولعلَّ المغفرة من الآدابِ الإسلامية الواسعة التي تهمُّ كلَّ مسلمٍ ، في كل وقتٍ وزمان ومكان .

* وهي البابُ الذي يطرقه التائبون ، كيما يَلِجوا منه إلى الرَّوح والرَّيحان ، في نعيم المليك المقتدر الرحمن .

* ولو رحنا نُشَنِّفُ أسماعنا ، ونمتّع أبصارنا في رياحين القرآن العظيم ، لوجدنا بأنَّ مادة المغفرة قد أخذت مساحةً

طيّبةً في آدابِ الأخلاقِ الإسلاميّة ، ولشعرنا بأنسامها العطرات تداعبُ وجْداننا ، وتحرِّكُ أوتار قلوبنا كيما تعاملَ علاّم الغيوب ؛ بالأعمال التي تطهِّر القلوب .

* فمادّة « غفر » من المواد الدسمة في ثنايا كتاب الله الكريم ، فقد دارت باشتقاقها على (٣٩ صيغةً) ، وكلُّها مشتقّة من مادة غفر .

* أما عدد المشتقات فقد وردت في (٢٣٤ موضعاً) في القرآن العظيم ، وجاءت صيَغُها على النَّحو الآتي :

غفرانك ، مغفرة ، المغفرة ، استغفار ، غفر ، فغفرنا ، استغفر ، استغفرتَ ، استغفروا ، تغفر ، تغفروا ، نغفر ، يغفر ، يغفرون ، يغفروا ، يُغْفر ، اغفر ، أستغفر ، لأستغفرن ، تستغفر ، تستغفرون ، يستغفر ، يستغفرون ، يستغفروا ، يستغفرونه ، استغفره ، استغفروه ، استغفري ، غافر ، الغافرين ، غفور ، غفوراً ، الغفور ، غفّار ، الغفّار ، غفّاراً ، المستغفرين .

* ومن المُلفت للنّظر أنَّ لفظ « غفور » قد ورد ستين

مرّة ، بينما ورد لفظ « غفوراً » بالنَّصب في عشرين موضعاً ؛ ومن الملاحظ أنَّ لفظ « الغفور » قد ورد في أحد عشر موضعاً ، بينما وردت صيغ المبالغة « غفار » و « غفّاراً » و « الغفّار » مرةً واحدةً ، وكلُّها تشيرُ إلى اسم من أسماء الله الحُسنى .

* أمّا لفظ المغفرة فقد ورد في (٢٤ موضعاً) ، ومن الجميل أنَّ المغفرة قد جاءت موزَّعةً في السُّور المكيّة والمدنيّة ، وكلُّها تشيرُ إلى سَعَة كرم الله عزَّ وجلَّ .

* وفي « مفرداته » تعرَّض الرَّاغب الأصفهاني ـ رحمه الله ـ إلى مادة « غفر » في آي الذِّكر الحكيم ، ودلَّ على مواطن تنوّع هذه المادة في ثنايا القرآن ، كما تعرَّضَ إلى المعاني العظيمة التي تحملها آداب المغفرة ، ولم يكتفِ الرَّاغبُ بذلك ، بل ذكر أيضاً مدلولات المغفرة فقال :

« الغَفْر » : إلباس ما يصونُه عن الدّنس ، ومنه قيل : اغفر ثوبَك في الوعاء ، واصبُغ ثوبَك ، فإنَّه أغفر للوسخ .

والغفرانُ والمغفرةُ من الله هو أن يصونَ العبد من أن يمسَّه

العذاب ؛ قال تعالى : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، و ﴿ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، و ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

* وقد يقال : غفر له : إذا تجافى عنه في الظَّاهر ، وإن لم يتجافَ في الباطن ، نحو : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية : ١٤] .

* والاستغفار : طلبُ ذلك بالمقال والفعال ؛ وقوله : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠] ، لم يُؤمروا بأن يسألوه ذلك باللسان فقط ، بل باللسان وبالفعال ، فقد قيل : الاستغفارُ باللسان من دون ذلك بالفعال فعل الكذّابين ، وهذا معنى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] ، و ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر : ٧] .

* والغافر والغفور : في وصف الله نحو : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ [غافر : ٣] ، و ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٠] ، و ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

* والغفيرة : الغفران ، ومنه قوله : ﴿ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ [نوح : ٢٨] ، و ﴿ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي ﴾ [الشعراء : ٨٢] ، و ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* وقيل : اغفروا هذا الأمر بغُفْرته : أي : استروه بما يجب أن يُسْتَر به . والمغْفر : بيضة الحديد .

والغفارة : خِرقة تستر الخمار أن يمسَّه دُهن الرأس ، ورقعة يُغَشّى بها محزُّ الوتر ، وسحابة فوق سحابة[1] .

* وتعرَّض أبو البقاء الكفوي في « كليّاته » لمادة « غفر » فقال : « الغَفْر » : كلُّ شيءٍ سترته فقد غفرته ؛ والغفر : الستر والتغطية ، يقال : غفر المتاع في الوعاء : إذا أدخله فيه وستره ، كأغفره . وغفر الشَّيب بالخضاب : غطّاه .

والغفور والغفّار : من صفات الله . والغفور : كثير المغفرة ، وهي صيانةُ العبدِ عمّا استحقَّه من العقاب بالتجاوز

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن (ص ٦٠٩) دار القلم ، دمشق ط ١ ١٩٩٢ م .

عن ذنوبه ؛ والغفّار : أبلغ منه لزيادة بنائه ، وقيل : المبالغة فيه من جهة الكيفية ؛ وفي الغفّار من جهة الكميّة .

والغفران : يقتضي إسقاط العقاب ، ونيل الثّواب ، ولا يستحقّه إلا المؤمن ، ولا يُستعمل إلا في الباري تعالى . والغفران في الآخرة فقط .

والعفو[1] يقتضي إسقاط اللوم والذم ، ولا يقتضي نيل الثّواب ، ويُستعمَل في العبد أيضاً ، كالتكفير حيث يُقال : كفّر عن يمينه .

والسَّتْر : أخصُّ من الغفران ، إذ يجوز أن يستر ولا يغفر .

---

(١) « العفو » : قد يكون قبل العقوبة ، وقد يكون بعدها ، بخلاف الغفران ، فإنه لا يكون معه عقوبة البتة ، ولا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ، والعفو : الفضل ؛ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، أي الفضل ، وهو أن ينفق ما تيسر له بذله ولا يبلغ منه الجهد . والعفو : الإسقاط نحو : ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، أي أسقط ؛ والعافون : طالبو المعروف .

والصَّفح : التّجاوز عن الذّنب . والمحو : أعمّ من العفو والغفران .

والمغفرة : ستر الجرم صوناً عن عذاب التخجيل والفضيحة[1] .

* ومن بحار « القاموس المحيط » نغترفُ بعض معانٍ لأدب المغفرة ، حيث تحدَّثَ الفيروزأبادي ـ رحمه الله ـ عن مادة « غفر » بتوسُّع ، فكان ممّا قال :

« غفر » : غَفَره يغفره : ستره ، وغَفَر الله له ذنبه : يغفره ، غفراً ، ومغفرة ، وغُفراناً . واستغفره : طلب منه غَفْره .

والغفور والغفَّار : من صفاتِ الله تعالى . وجاؤوا جمًّا

---

(١) انظر : الكليات ؛ لأبي البقاء الكفوي المتوفى سنة (١٠٩٤ هـ) ، (ص ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٦٦٦) بشيء من التصرف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢ ١٩٩٣ م .

غفيراً : أي جميعاً ؛ شريفُهم ووضيعُهم ، لم يتخلّف أحد ، وهم كثيرون . وبنو غافر : بطن ، وبنو غِفار : رَهْط أبي ذرّ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ وما فيه غفيرة : لا يغفر لأحدٍ ذنباً[1] .

* وفي « تهذيبه » قال الإمام النّوويُّ ـ رحمه الله ـ :

« غفر » روتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ قالت : ما خرجَ رسول الله ﷺ من الغائط إلا قال : « غُفْرانَكَ »[2] .

قال أبو سُليمان الخطّابي : الغُفْرانُ مَصْدرٌ كالمغفرة .

---

(١) القاموس المحيط (ص ٥٧٩ و ٥٨٠) باختصار وتصرّف . مؤسسة الرسالة ، ط ١ ١٩٨٧ م .

(٢) هذا الحديث أخرجه أبو داود ، والترمذي ؛ ولفظ روايتهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن النَّبي ﷺ كان إذا خرج من الغائط قال : « غفرانك » . وفي رواية الترمذي : إذا خرج من الخلاء .

قال : وإنّما نصَبَه بإضمار الطّلب والمسألة ، كأنّه يقول : اللهمَّ إنّي أسألُكَ غفرانَك ، كما تقولُ : اللهمَّ عفوكَ ورحمتكَ ، يريد : هَبْ لي عفوَكَ ورحمتَكَ[1] .

* * *

(١) انظر : تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٤٢) طبعة دار الفكر .

الفصل الثاني

اللهُ الغافرُ والغفور والغفّار

* نحنُ الآن في رحابِ المغفرة ، ومن المُسْتحسَنِ أن نتعـرَّضَ لنفحـاتِ أسمـاءِ الله الحُسنـى ومنهـا : الغـافـر ، والغفور ، والغفّار ، ليطيبَ الحديث مع المغفرة ، ولتطيبَ النُّفوسُ والقلوبُ بذلك أيضاً .

* فهذه المفردات : (الغافر ، الغفّار ، الغفور) من صفاتِ الله تعالى وأسمائه ، وهي أسماء عظيمة ، من أسماء الخُلُق الإلهي العظيم التي يجب على المؤمن المحبّ لله أن يتحلّى بها ، ويتمثَّلها في أقواله وأفعاله ؛ ومن المستحسن أن نفهمَ هذا الاسم العظيم ؛ لأنَّه لا يمكن للمؤمن أن يتخلَّق به ما لم يدرك فهمه فهماً صحيحاً .

* فما الغُفران ؟ وكيف يكونُ المرءُ غفّاراً ؟ وكيف نفهم هذا المعنى كاسمٍ لله تعالى ؟!!

* وفي الجوابِ عن هذا نقول : يعودُ مجمل معاني الغَفْر في اللغة العربية ـ كما مرّ معنا ـ إلى السَّتر ، كما يُقال : غفر الجرحُ : إذا برأ . ويختلفُ الغفر عن السَّتر ، والغفر يتعلَّق بالذَّنب ، والسَّتر : خلق عام لا يتعلَّق بالذّنب .

* وحتى نتعرّفَ الفارقَ بين كلمتي : الغفر والسّتر ، لابدَّ من أن نضربَ بعضَ الأمثال كيما تتضحَ الصُّورة تماماً ، ومن ثمَّ نوردُ المعنى الدقيق لكلتا اللَّفظتَيْن :

فإذا حصَلَ من شخصٍ ما خطأٌ تجاه شخص آخر ، ثم ندم على فعلته ، فإنّه يطلبُ من ذلك الشخص الذي أخطأ نحوه أن يغفرَ له ، أي يُسامحه على ما بدر منه من هفوة ، أو هفوات ، ومعنى هذه المسامحة : أن يزيلَ آثارَ السُّخطِ والغضبِ من نفسه نتيجةً لما حدثَ من خطأ نحوه ، فإن سامحه الشَّخصُ المرتكبُ الخطأ نحوه ، فقد غفرَ له ، أي أزالَ من نفسه أثر الخطأ ، وعفا عنه ، والعفو : بمعنى المحو والإزالة .

* إنَّ الذي يقعُ في خطأ ما ، ثم يرجعُ عنه نادماً وهو يدركُ خطورةَ ما وقعَ فيه من زَلَلٍ ، فإنَّ نفسَه قد تبقى في حالة تأنيب للضمير ـ وإن قوبل بالتّسامح ـ ، لأنَّ المرءَ الذي يندم على خطئه ، هو امرؤ ذو نفسٍ حيَّةٍ حسّاسةٍ لوّامةٍ ، إذ يبحثُ عن سبيلٍ طيِّبٍ لتكفير الخطأ الذي ارتكبه ، وإزالة أثره من نفسه المخطئة ، ولكنّ هذا التكفير يجبُ أن يُرفق بعملٍ يرضي الذي وقع الخطأ بحقِّه ، وعندها يزولُ أثرُ الخطأ من نفس الاثنين .

* وإذا كان المُخطىء جاهلاً ـ والخطأ لا يقعُ إلا من جَهْل ـ وكان الغافرُ عالماً ، فإنّه سيرشدُ المخطىء إلى طريقة تكفير خطئه ، فالغافرُ المثالي هو الذي لا يتركُ أثراً للخطأ في نفسه ، فلا يحمل على المخطىء أيّ سخط أو غضب ، كما أنّه يمحو هذا الخطأ من نفسِ المخطىء ذاته إذا كان عالماً بطريقة تكفيره ، ودلّه عليه ، وهذا هو المعنى الذي يتناسب مع كمال الله ، وخلُقه الرفيع .

* * *

الفصل الثالث

من معاني اسم الله الغافر

* إنَّ المعنى المثالي لاسم الله الغافر هو الذي يزول سخطه وغضبه حينما يتوب العبد ، ويقلعُ عن ذنبه ، ويؤوب إلى بارئه نادماً مستغفراً ، وعندها يكفّر الله ذنوب العبد ، فيسترها عن نفسه بإلهامه له طريقة تكفيرها ، وذلك بالأعمال الصّالحات ، أو الصدقات ، أو مساعدة الناس ، أو ما شابه ذلك ، وهذا فَضْلٌ عظيم من الكريم الغافر على عباده ، وعلى خَلْقه .

* وأمّا الغفّارُ والغفورُ ، فهي صِيَغُ مبالغةٍ تدلُّ على أنّ الله عزَّ وجلَّ يغفرُ الذُّنوب جميعاً مهما بلغت عدداً أو عِظَماً ، ومهما تعدَّدَ مرتكبوها ، فلو أخطأ النّاسُ جميعاً ، ثمّ عادوا

إلى خالقهم عودةً واحدةً صادقةً لغفر لهم جميعاً ولا يُبالي ، لأنَّ الأمورَ بخواتيمها .

* إنَّ العبد إذا عادَ إلى خالقِه عودةَ المستغفرين حقَّقَ المراد منه ، وسَعِدَ بلقائه ، ونَعِمَ بقُربه ، وإذا عادَ المرءُ إلى ربِّه عودة حميدة ، شفيت نفسه من أدرانها وأمراضها ، وعندها قد لا يرتكبُ الأخطاءَ بعد ذلك إن كانت توبتُه نصوحاً .

* لقد جاء اسمُ اللهِ الغافرُ في القرآن الكريم مرَّةً واحدةً في قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [غافر : ٣] ، كما جاء بصيغة : خير الغافرين مرة واحدة أيضاً في قوله : ﴿ فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

* وأمّا اسم الله « الغفور » فقد ذُكر (٩١ مرة) في القرآن الكريم في الرفع والنّصب ، والتعريف والتنكير ، ومن العجيب أنّ لفظ « الغفور » قد جاء مقترناً باسمه الرحيم (٧٢ مرة) ، ومقترناً باسمه الحليم (٦ مرات) ، ومقترناً باسمه الشكور (٣ مرات) ، وباسمه الودود (مرة واحدة) ،

وباسمه العزيز (مرتان) ، وباسمه ذو الرحمة (مرة واحدة) ، وباسمه العفو (٤ مرات) ، والباقي جاء مفرداً .

* وأمّا اسمُ الله الغفّار فقد ذُكر خمس مرات في الرفع والنّصب والجر ، وفي ثلاث منها جاء مقترناً باسمه العزيز ، ومرتين مفرداً[1] .

* * *

(١) انظر الآيات : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ [طه : ٨٢] ، و ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴾ [صّ : ٦٦] ، و [الزمر : ٥] ، و [غافر : ٤٢] ، و ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠] .

الفصل الرابع

من ثمرات اسم الله : الغافر والغفور والغفّار

* فيما مضى عِشْنا في رحابِ بعضٍ من أسماءِ الله الحسنى في مجال المغفرة ، وعلمنا بعض معانيها الحِسان ، تلك التي تولِّدُ في النَّفسِ محبّة الله الغفور الودود ، وتجعل من الإنسان عبداً مُسْلماً مستسلماً للعزيز الحميد .

* ولأسماء الله : الغافر والغفور والغفّار ثمرات يجنيها العبدُ المؤمنُ الذي يعرفُ قَدْر الله ، ويستشعر عظمته في نفسه ، خصوصاً إذا لجأ إليه حينما يخلص من ذنبٍ أو هفوة ، أو يقعُ في خطأ أو زلل ، وعندها يجتني ما شاء أن يجتني من تلكم الثّمرات اللواتي آتت أُكُلها حين الأوبة الحقيقية إلى الملاذِ الآمن في ظلّ مغفرة المليك المقتدر .

* ونستطيعُ أن نُجملَ بعضَ الفوائدِ من تلكم الأسماء الشريفة ، في عدد من الآداب ، ومنها :

● إنَّ العبدَ إذا وقعَ في خطأ ، ثمّ تاب وأنابَ واستغفر الله ، وجدَ الله توّاباً رحيماً غفوراً ، وركنَ إلى الاستغفار ؛ إذ الاستغفار مادَّةُ النَّجاةِ[1] وحبلُها المتين .

● المؤمنُ المحبُّ لله عزَّ وجلَّ يتخلَّقُ بما يحبُّ الله ، فيغفر للناس أخطاءَهم ، ولا يحملُ في نفسه ضغينةً أو حقداً على أحدٍ ، ويكون ممّن عناهم الله بقوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٧] .

● طلبُ المغفرة والاستغفار مفتاحُ الرِّزق ، مِمْحاةُ الذَّنب ، مِجْلابُ الخير ، قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

---

(١) اقرأ كتابنا « النجاة » من سلسلة مفاهيم إسلامية ، طبعة دار اليمامة بدمشق .

ولله درُّ من قال فأحْسَنَ :

إذا شئتَ أن تبقى من الله نعمةٌ ... عليك فسارعْ في حوائجِ خَلْقِهِ
ولا تَعْصيَنَّ اللهَ ما نلتَ ثروةً ... فيحظرَ عنكَ اللهُ واسعَ رزقهِ

● يجبُ أن يكونَ الاستغفارُ باللّسانِ والجوارحِ والعملِ ، والإقلاع كليّاً عن الآثام والإنابة إلى الله بالتّوبة الصّادقة النّصوح ، فالإقلاعُ عن الكفر ، وعن المعاصي من موجبات الغفران ؛ قال ربُّنا عزَّ وجلَّ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

● ومن ثمراتِ المغفرة : أن يبدأ المؤمنُ كلَّ دعاءٍ بالاستغفار ، وهذا ما ربّى عليه القرآنُ أهلَ القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران : ١٤٧] ؛ وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٦] .

● الاستغفارُ طريقٌ ذو ظلٍّ ظليل من طرقِ الرّحمة ، ومن هدي القرآن الكريم في هذا قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦] .

● اللهُ وحده هو مالكُ كلّ شيء ، وهو الغفور الرحيم ، يغفرُ لمن يشاء ، ذو مغفرةٍ واسعةٍ ، وقد وردت جملة ﴿ذو مغفرة﴾ بهذه الصيغة في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد : ٦] ، وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت : ٤٣] .

* * *

الباب الثاني

من نفحات المغفرة في كتاب الله

الفصل الأول : المغفرةُ رحمةٌ إلهيّة .

الفصل الثَّاني : من نفحاتِ سورة غافر .

الفصل الأول

المغفرةُ رحمةٌ إلهيّةٌ

* من عظيم فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ على المؤمنين التّائبين ، أنّه يُسخِّرُ لهم حملةَ العرش من الملائكة ، والذين حولَ العرش منهم ، فيدعون الله لهم بأن يغفر لهم ، ويقيهم عذابَ النّار ، بل يُدخلهم جنّاتِ عَدْنٍ ، ويقيهم السيّئات ، فهلمُّوا نقرأ هذه الآيات الدالّة على ذلك : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾

وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر : ٧-٩] .

* ومن نفحاتِ المغفرةِ في القرآن الكريم ، دعوة الأنبياء أقوامَهم إلى رحاب الاستغفار ، ثم التوبة ، وعندها تظهرُ البركات بالاستغفار ، ويزدادُ المستغفرون قوّةً إلى قوّتهم ، ومن ذلك قولُ نبي الله هود ـ عليه السلام ـ يدعو قومه إلى هذه الظِّلالِ الوارفاتِ في نعيم المغفرةِ كما حكى القرآن عنه ذلك : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود : ٥٢] .

* وفي القرآنِ العظيم وقفاتٌ آسراتٌ مع المغفرة ، ومع المغفور لهم من عباده ، قال تعالى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾

[الإسراء : ٢٥] .

* فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ غفورٌ للرجّاعين إلى طاعته ، فهم يجدّدون رجوعهم إلى الله كلّما ابتعدوا عن طريق طاعته ،

ولما كانوا كذلك كان اللهُ لهم غفوراً ، فهم يمنحُهم من غفرانه قدراً كبيراً يناسب كثرة رجوعهم إليه .

* ويتقبَّل اللهُ باسمه الغفور العبادَ إذا كانوا صالحين في نفوسهم ، والمرادُ من الصَّلاحِ هنا إصلاحُ النُّفوس والقلوب .

* وفي دعوةٍ قرآنيّةٍ أخرى إلى مائدة المغفرة ، نجد أنَّ القرآن العظيم يمهِّدُ السُّبل أمامَ عبادِ الله الذي أسرفوا على أنفسهم ألاّ يقنطوا من رحمةِ اللهِ ، وأن يركنوا إلى الاستغفار ، فرحمةُ اللهِ واسعةٌ ، وهو يغفرُ الذُّنوب جميعاً ، قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، ففي هذه الآية العظيمة ـ كما ترى ـ لطيفة رائعة حيث نجد أنَّ الله عزَّ وجلَّ ينادي عباده بلفظ محبب أليف ﴿يا عبادي﴾ ، فهو يناديهم ليرجعوا إليه ، وينهاهم عن القنوط من رحمته ، ويؤكّد لهم أنَّ ميدان المغفرةِ يستقبلُهم ، وأنَّه يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً .

* هذا ونفحاتُ المغفرة تهبُّ بأنسامها العطرات علينا في

القرآن الكريم ، وتداعب أوتار القلوب كلّما مررنا بآيةٍ فيها أنفاسُ المغفرة وهمساتُ الاستغفار[1] .

* * *

(١) ولله درُّ من قال فأحسنَ الاقتباس من القرآن الكريم :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفْ وتابَ ممّا قد جَناهُ واقترفْ
لقوله : قُلْ للذين كفروا إنْ ينتهوا يُغْفَر لهم ما قد سَلَفْ

الفصل الثاني

من نَفَحاتِ سورةِ غافر

* وفي القرآن الكريم سورة تسمّى سورة (غافر) ؛ وسورة غافر ، أو سورة المؤمن هي أولى السُّور السَّبْع المبدوءة بهذين الحرفَيْن : ﴿حم﴾ ويُقال : « آل حم » ويُقال لهنّ : العرائس .

قال عبد الله بن مسعود[1] ـ عليه سحائب الرضوان ـ : آل حم ديباج القرآن[2] .

---

(١) اقرأ سيرة عبد الله بن مسعود ـ رضوان الله عليه ـ في موسوعتنا الكبيرة « علماء الصحابة » تجد خيراً كثيراً بإذن الله .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٨٢) طبعة دار ابن كثير الأولى .

وقال ابن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ : إنَّ لكلِّ شيءٍ لُباباً ، ولبابُ القرآن آل حم[2] . وقال ابن مسعود أيضاً : إذا وقعتُ في « آل حم » فقد وقعتُ في روضاتٍ أتأنَّقُ فيهن[2] .

* وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ رجلاً رأى أبا الدَّرداء يبني مسجداً ، فقال له : ما هذا ؟

فقال : أبنيه من أجل « آل حم » . وقد يكونُ هذا المسجدُ الذي بناهُ أبو الدّرداء هو المنسوبُ إليه داخل قلعة دمشق[2] .

* وفي هذه السُّورة الكريمة نقرأُ قولَ ربِّنا عزَّ وجلَّ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ ﴾ [غافر : ٣] ، ونلاحظُ أنَّ من سنن القرآن الكريم الجمع بين الوعد والوعيد ، ليظلَّ الإنسان محكوماً بمشاعر الخوف والرَّجاء ، ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة : ٩٨] .

---

(١) اقرأ سيرة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في موسوعتنا « علماء الصحابة » واستمتع بنعيم العِلْم مع هؤلاء الصحابة الأخيار الأبرار الأطهار رضوان الله عليهم .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٨٢ و ٨٣) .

* إنَّ الإنسان يحتاجُ دائماً إلى الأمل والمغفرة ، كما يحتاجُ إلى ما يكبحُ غرورَه وتماديه ، إذ إنَّ يأسه من النجاح قد يقوده إلى السُّقوط ، واغتراره بما عنده يمنعه السَّبْق .

* حكى ابن كثير قال : قال أبو إسحاق السَّبيعي ـ رحمه الله ـ : جاءَ رجلٌ إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني قتلتُ فهل لي من توبة ؟ فقرأ عليه : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر : ١ـ٣] ، وقال : اعمل ولا تيأس[1] .

* وحكى ابن كثير أيضاً قال : كان رجلٌ من أهلِ الشّام ذو بأسٍ ، وكان يَفِدُ إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، ففقَدَهُ عمر فقال : ما فعلَ فلان بن فلان ؟!

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، يتابعُ هذا الشَّراب! فدعا عمرُ كاتبهُ ، فقال : اكتب ؛ من عمرَ بن الخطاب إلى فلان بن

---

(١) المصدر السابق نفسه .

فلان ، سلامٌ عليك ، فإنّي أحمدُ إليكَ الله الذي لا إله إلا هو ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣] ، ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبَلَ ، وأن يتوب عليه .

فلمّا بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردِّدُ ويقول : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [غافر : ٣] ، قد حذَّرني عقوبته ، ووعدني أن يغفر لي ، ثم نزع فأحسن النَّزع .

فلمّا بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم زلَّ زلَّةً فسدِّدوه ووفِّقوه ، وادعوا الله له أن يتوبَ عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[1] .

* ولقد أحببتُ ـ عزيزي القارىء ـ أن أوردَ هذه القصة الجميلة في عالم المغفرة والاستغفار والغفران ، لأنه يوجد فيمن حولنا ، وفي عصرنا ، وفي كلّ مكان « أُناسٌ مُقْنِطون » من مغفرة الله ورحمته ، وهؤلاء يرسلون نفثات الإهانة

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤) .

والتقريع ، وكأنّ غايتهم إهلاكُ المرء حيثُ زلّتْ قدمُه ، على حين نجدُ من أعداء الله من يلتقط بعض العاثرين ليفتنهم عن دينهم بعد أن يعدَهم بالمغفرة .

* ومن باب اللطائف في ديوان المغفرة ، أنَّ هذه السُّورة تُسمّى سورة غافر ، وفيها دعوة حلوة إلى المغفرة والتوبة ، وأخذ العبرة والعِبَر من الأمم السّالفة ، ثمّ تعرضُ هذا العرض الرائع لأدب المغفرة ، إذ إنَّ ملائكة الرحمن وهي في عليائها تدعو وتستغفر للذين آمنوا وتابوا ، إذاً فلنقرأ تلكم الهدية الرحمانية المباركة من العزيز الغفور ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧] .

* لقد استعرضت سورة غافر كثيراً من المفاهيم والأحداث ، ولكنّ المغفرة ، والدَّعوة إلى العزيز الغفّار كانت من أبرز الآداب والأخلاق القرآنية في هذه السُّورة المباركة .

* * *

الباب الثالث

فوائد المغفرة في قصص القرآن الكريم

الفصل الأول : أنسامُ المغفرة في القصص القرآني .

الفصل الثاني : دعوةٌ إلى مائدة المغفرة .

الفصل الأول

أنسامُ المغفرةِ في القَصَصِ القُرآني

* إن سِيَرَ الأنبياء والرُّسل وأخبارهم لها أهميَّةٌ بالغةٌ ، بحكم أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد اختارهم لرسالاته ، ولتعليم العباد ، وإرشادهم إلى سُبُل الرَّشاد ، وهذا يقتضي أن يكونوا قدوةً لأقوامهم في كلّ ما جاؤوا به من عقائد وشرائع وأخلاق .

* ونجدُ في كتاب الله عزَّ وجلَّ سجلاً لأخبارهم ، ومن المعروف أنَّ أخبارهم قد عُرفَتْ عن طريقِ الوحي الذي نزل على الحبيب الأعظم محمد ﷺ .

* والقرآنُ العظيم يقولُ إنّه يقصُّ أخبار بعض الرُّسل

والأنبياء ، ولا يقصُّ أخبار بعض رسل آخرين[1] ، وهو أيضاً لا يتحدَّثُ عن أخبار بعضهم إلا قليلاً ، وقد يكتفي بذكر أسمائهم ، وبعض صفاتهم الكريمة[2] .

* أمّا التفصيل فهو في ذِكْرِ أخبار الرُّسل الذين كانت في حياتهم ودعوتهم أحداثٌ كبرى ، وكان لهم شأنٌ عظيمٌ في تاريخ الدِّين ، والتاريخ الإنساني من عَهْدِ آدم أبي البشر ، إلى نوحٍ صاحب الطُّوفان ، ثمّ موسى ، إلى عهد سيِّدنا محمد عليهم جميعاً الصَّلاة والسَّلام .

* وفي القرآن الكريم كلّ أخبار دعوتهم في جوهرها ، إلى تمام الهداية الإلهيّة في الرسالة المحمديّة التي أكمل اللهُ بها الدِّين للإنسانيّة كلِّها ؛ لكننا قد نجدُ تفصيلاً في أخبار بعض الأنبياء الذين تعرّضت حياتهم للمعاناةِ بكلّ ما فيها من

---

(١) اقرأ الآية (٧٨) من سورة غافر .
(٢) اقرأ الآيتين (٥٦ و ٥٧) من سورة مريم عن إدريس عليه السلام ، والآية (٨) من سورة ص عن اليسع وذي الكفل .

حكمةٍ ، وذلك مثل سيرة يعقوب ويوسف وأيوب عليهم السَّلام .

* والقرآن الكريم فيما يقصُّه من أنباء الرسل يؤكدُ أنه ﴿ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣] ، والحقيقة فإنَّ أسلوب القصص القرآني قد جاء في أعلى ذروة من الجمال والفصاحة والبيان والتصوير للأحداث ، على نحوٍ يأخذُ بلبِّ القارىء المحبّ ، ويجتذبُه ويؤثِّر فيه بكلّ وجوه التأثير ، وخصوصاً في المفاهيم الأخلاقية والأدبية .

* والقرآن الكريم يؤكِّدُ في أكثر من موضع أنّه ﴿ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران : ٦٢] ، و ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق : ١٣ـ١٤] ، وأنَّ ما يحكيه هو قولُ الحقّ .

* وآياتُ القرآن العظيم تدلُّنا على وجوه الحكمةِ من ذِكْر أخبار الرُّسل والأنبياء ، وأنّهم إنما جاؤوا ليبيِّنوا للإنسان معنى حياته في الأرض ، وليبيِّنوا أيضاً الحقائق الكبرى في الإيمان والمبادىء الكليّة ، والشَّرائع بما فيها من الأوامر والنّواهي ، وأكَّد الأنبياءُ جميعاً أنّ جوهرَ الإيمان هو الدِّين ؛

والإيمان هو حقيقة واحدة ، أعني الإيمان بالإله الواحد الحقّ ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

* وفي أخبار الأنبياء والرُّسل نجدُ التَّعليمَ المتدرِّجَ في سُلَّم الأخلاق والآداب الإسلاميّة ، ومنها أدب المغفرة ، كما سيلاحظ القارىء الكريم في الصَّفحات التاليات .

* * *

الفصل الثّاني

دَعْوةٌ إلى مائدةِ المغفرة

* تردُ القصصُ في القرآن الكريم في مواضعَ ومناسبات عدّة ؛ وهذه المناسبات التي يُساق القصص القرآني من أجلها هي التي تحدِّدُ مساقَ القصّةِ ، وتعطي محورها وشكلها وهدفها ، وبذلك تؤدي القصّةُ دورها الموضوعي ، وتحقّقُ غايتَها الأخلاقيّة والنّفسية ، وتلقي إيقاعها المطلوب في أغوارِ النُّفوس ، وحنايا القلوب .

* ويحسبُ أُناسٌ أنّ هنالك بعض التكرار في القصص القرآني ، إذ إنَّ القصّة الواحدة قد يتكرَّرُ عرضُها في سُوَرٍ متعدّدةٍ ، ولكنه حيثما تكرر القصّة نجدُ مفهوماً آخر جديداً يؤدّيه التعدّد ، وهذا المفهومُ ينفي حقيقة التكرار .

* ومن الآداب التي تعرَّضَ لها القرآن العظيم أدب المغفرة ، هذا الأدب الذي جاء في قصص ومفردات وحوادث ، ودعاء وتقرُّب وطلب ، وفي حياة الأنبياء وما شابه ذلك .

* وقصصُ الأنبياء في القرآن العظيم ، في ضوء المغفرة ، يمثِّلُ موكبَ الإيمانِ ، في طريقه الممتدّ الواصل الطويل ، من لدن آدم إلى محمد عليهم الصّلاة والسّلام ؛ ومن خلال قَصَص بعض الأنبياء نلمح بوارق المغفرة ، وحقائق الغفران تتجلّى في حياتهم الشريفة ، وذلك تعليماً وتفهيماً للبشرية جمعاء ، ولنا معاشر المؤمنين بشكل خاص ، حيثُ تصوِّرُ المغفرة طبيعة العلاقة بين العباد وربِّهم الذي خصَّهم بهذا الفَضْل العظيم ؛ لأنَّ المغفرة من العزيز الغفّار تفيض على القلوب رضاً ونوراً وشفافيةً ، وتغرسُ فيها أمناً وشفاءً وطمأنينةً ، وتشعرها كذلك بحبل المغفرة الممدود ، بين المخلوق وبين الغفور الودود ، وعندها ننظر إلى الحياة نظرةً فيها الأملُ والإشراقُ والحياةُ

من أجل الفوز بمرضاة الله عزَّ وجلَّ ، ونيل مغفرته في الدَّارَيْن .

* وفي الفصول والفقرات الآتية نسمعُ ونستمعُ ونستمتعُ بنعيم المغفرة في قصص أنبياء الله عليهم الصَّلاة والسَّلام ، كيما ندرك هذه الحقيقة ، ومدىٰ أثرها في النُّفوس .

* * *

الباب الرابع

المغفرة في حياة الرسل وأخبارهم

« قصصٌ وعبرٌ »

الفصل الأول : قصّةُ المغفرة في حياة آدمَ عليه السَّلام .

الفصل الثاني : قصَّةُ نبي الله نوح في طلب المغفرة .

الفصل الثالث : قصَّةُ استغفار نبي الله إبراهيم لأبيه .

الفصل الرابع : قصَّةُ المغفرة في حياة نبي الله يُوسف وإخوته .

الفصل الخامس : نبيُّ الله موسى ومغفرة الغفور الرحيم .

الفصل الأول

قصَّةُ المغفرةِ في حياةِ آدمَ عليه السَّلام

في قصَّة نبيِّ الله آدمَ عليه السَّلام إشراقاتٌ رائعاتٌ في ضوءِ المغفرة والغفران ، وها نحن أولاء نقرأ ونسمعُ مِنْحَة المغفرة بعد مِحْنةِ الذَّنب .

* فقد خلقَ اللهُ آدم ، وعلَّمه الأسماء كلَّها ، وأمرَ الملائكة الكرام بالسُّجود لآدم ، فسجدوا امتثالاً لأمر العزيز الغفور ، إلا إبليس أبى وامتنعَ عن السُّجود ، وصمَّمَ في نفسه أن يقعُدَ لآدمَ وذريَّته في الطريق ، ويكيدُ له ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

* وهنا تبرزُ المغفرةُ وضيئةً زاهرةً تنيرُ طريقَ المنيبين إلى الله ، وتكشفُ ألاعيب إبليس وذريَّته في مَيْدانِ المعركة

بين الإنسان والشَّيطان ؛ وهذه المعركةُ إمّا أن ينتصرَ فيها الخيرُ بمقدار ما يستعصمُ الإنسانُ بإرادته ، وعهده مع ربِّه ، وطلبه رضوانه ومغفرته ، وإما أن ينتصرَ فيها الشَّرُّ إذا ما استسلمَ الإنسانُ لشهواته ، وأطلق العنان لملذَّاته ، وابتعدَ عن ربِّه .

* وبعد أن حدثَ ما حدث ، جاء الأمرُ الإلهيُّ لآدمَ وزوجه قائلاً : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] .

* ولكنَّ الشَّيطان أزلَّهما ، وزحزحهما عن الجنَّة ، ونسي آدمُ عهده ، وضعُفَ أمام الغواية الإبليسية ، وعندها جاءَ الأمرُ الإلهيُّ يقول : ﴿ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [البقرة : ٣٦] .

* وعلى ظهر الأرضِ بدأتِ المعركةُ بين الإنسانِ والشَّيطان إلى آخر الزَّمان ، بَيْدَ أنَّ آدمَ نهضَ من عثرته ، وأدركته عنايةُ الله ومغفرتُه ، حيث تابَ وأنابَ إلى ربِّه ولاذَ به .

* وتبرزُ المغفرةُ في قصَّةِ آدمَ عليه السَّلام فيما ورد إلينا من

أخبار ، فقد ذكر ابن قُدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ أنَّ آدمَ عليه السَّلام قال بعد أن وقعَ في المخالفة وهو يبكي :

* عَظُمَتْ مُصيبَتي يا إلهي ، وأحاطَتْ بي خطيئتي ، وخرجتُ من ملكوتِ ربِّي ، فأصبحتُ في دار الهوان ، بعد الكرامة ، وفي دار الشَّقاء بعد السَّعادة ، وفي دار البلاء بعد العافية ، وفي دار الظَّعن والزّوال بعد القرار والطمأنينة ، وفي دار الفناء بعد الخُلْد والبقاء ، وفي دار الغرور بعد الأمْنِ ، يا إلهي! فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟!

قال اللهُ له : ألمْ أصطفك لنفسي ، وأحللتك داري ، واصطفيتك على خلقي ، وخصصتك بكرامتي ، وألقيتُ عليك محبَّتي ، وحذَّرتك سخطي ؟ .

ثم قال له : وإنّي قد رحمتُ ضعفَك ، وأقلتُكَ عثرتك ، وقبلتُ توبتك ، وسمعتُ تضرُّعك ، وغفرتُ ذنبك ، فقُل لا إله إلا أنت سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، ظلمتُ نفسي ، وعملتُ السوء ، فتُبْ عليَّ إنَّك أنت التوَّابُ الرَّحيم .

فقالها آدم ، ثم قال له ربُّه قل : لا إله إلا أنت ، سبحانك

اللهمَّ وبحمدك ، ظلمتُ نفسي ، وعملتُ السوء ، فاغفر لي ، إنك أنتَ الغفور الرحيم .

فقالها آدم ، ثم قال له ربُّه قل : لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، ظلمتُ نفسي ، وعملتُ السوء فارحمني ، إنك أنت أرحم الراحمين[١] .

* وفي رواية أخرى أنَّ آدم بكى ساجداً حتى فاضت دموعه وجرت على الأرض ، فنودي عند ذلك مبشّراً بغفران ذنبه : يا آدم ، قد رحمتُ ضعفك ، وقبلتُ توبتك ، وغفرتُ ذنوبك ، فقل : لا إله إلا الله ، سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءاً ، وظلمتُ نفسي ، فتُبْ عليَّ إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيم ، واغفر لي فأنت خير الغافرين ، وارحمني فأنت خيرُ الراحمين[٢] .

---

(١) انظر كتاب : الرقّة والبكاء لابن قدامة المقدسي (ص ٥٨ و ٥٩) باختصار ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، دار القلم ، دمشق ط ١ ١٩٩٤ م .

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٦٠) .

* نعم لقد هتف آدم وزوجه و ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، إنّها خصيصةُ الإنسان التي تصله بربه ، وتفتحُ له الأبواب إليه ، الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، نعم الاستغفار وطلب المغفرة من الغفّار ، والاستعانة به ، وطلب رحمته الممزوجة بمغفرته بعد أن تلقّى من ربّه كلمات عطرات بأريج الغفران فتاب عليه ، ترى ما الكلمات التي تلقّاها آدمُ من ربّه ؟!

* قال مجاهد ـ رحمه الله ـ الكلمات :

اللهمَّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنّك خيرُ الغافرين .

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي ، فارحمني إنك خيرُ الراحمين .

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فتُب عليَّ ، إنّك أنت التوّابُ الرحيم .

* وهكذا تاب اللهُ على آدمَ وزوجه ، وغفر لهما زلّتهما ،

فأثلج ذلك صدرهما ، وقرَّت بالمغفرة عينهما ، وانبثق الأملُ ثانيةً في نفسيهما ، حيثُ علما أنَّ المغفرة قد ظللتهما بجناحيها وأشبعتهما بروي نداها ورحيقها ، وكانت برداً وسلاماً عليهما ، ألا ما أجمل المغفرة من العزيز الغفّار!! ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ؟!

* * *

الفصل الثاني

قصّةُ نبيِ الله نوح في طلب المغفرة

* لعلَّ قصَّةَ نبيّ الله نوح عليه السّلام مع ابنه من القصص القرآني الشَّهير الذي نسمعه ونقرؤه في القرآن الكريم .

* إنَّ نوحاً عليه السلام أوَّلُ رُسُلِ الله إلى الأرض[1] ، فدعاهم إلى التوحيد و ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح : ٢-٣] .

* ولبثَ نوحٌ مدةً طويلة من الزَّمن تقتربُ من عشرة قرون

---

(١) هذا يعني أنَّ آدم هو أول الأنبياء ، ولم يكن رسولاً ، بدليل ما جاء في صحيح مسلم ، كتاب الإيمان برقم (٢٩٥ و ٢٩٩) .

﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] ، وكان ابنه من المكذِّبين والمعاندين لدعوته .

* وصبرَ نوحٌ خلال هذه المدّة ، إلى أن أوحى اللهُ إليه أن اصنعِ السَّفينةَ ، فإنَّ الذين ظلموا سيكونون من المغرقين .

* وصنع نوحٌ السَّفينةَ ، وصَعِدَ عليها مع الذين آمنوا معه ، وظهرَتْ علاماتُ الطُّوفان حيث انهمرتِ الأمطار ، وتفجَّرت ينابيعُ الأرض ، وفي هذه اللحظات الحرجة العصيبة نادى نوحٌ ابنه لينجوَ مع النّاجين ، بَيْدَ أنَّ الابن الضالَّ أخذَتْهُ العزَّةُ بالإثم و ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٤٣] ، ونسيَ المُغْتَرُّ أن لا عاصمَ في ذلك اليوم شيءٌ من أمر الله إلا من رحم ، وغرق الابنُ الكافر ، وكان كأمسِ الدَّابر ، وظنَّ أنّ الجبل يمنعه من الغرق ، كما ظنَّ أنّه إذا صار إلى الجبل تحصَّن به من الماء ، وحفظه بارتفاعه من الغرق ، حيثُ اعتقدَ أنَّ الطُّوفان لا يبلغُ رؤوس الجبال ، ولكنَّ الموجَ حالَ بين نوحٍ وابنه فكان من المغرقين .

* ولعلَّ نبيَّ الله نوحٌ ـ عليه السَّلام ـ قد فوجيء بغرق

ابنه ، وهنا ـ وفي لحظاتٍ من الأبوّة الحانية ـ توجّه إلى الله داعياً سائلاً إيّاه عن سبب غرقه ، مع أنّه من أهله الذين وُعِدَ بنجاتهم ، وقد ظنّه من أهله المؤمنين ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

[هود : ٤٥] .

* وبعد هذا السُّؤال الاستفهامي من نوح عليه السّلام ، تأتيه الإجابة الربانيّة العادلة ليطمئنَّ قلبهُ الخائفُ الحزينُ على ابنه فتقول : ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : ٤٦] ، نعم فإنَّ هذا الابن ليس من أهلك النّاجين ، لأنّه كان مخالفاً لدينك ، ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] ، فهو كثير الإساءة ، مداومٌ على الفساد والإفساد .

* وبعد أن بيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّه نوحٍ حالَ ابنه الكافر ، نهاهُ عن مثل هذا السُّؤالِ بشيء من العتاب الموشَّى بالرِّفق والتلطُّف واللين قائلاً له : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود : ٤٦] ، فكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ لنوح : يا نوح ، إنَّ مقامكَ كريم ، ومن شأنك ألا تسأل مثل

هذا السُّؤال ، لأنّك لا تعلم ما هي عاقبته ومآله ، وإنّي أعظُكَ وعظاً تكون به بمعزلٍ عن الجاهلين[1] .

* وبعد أن عُوتبَ نوح ـ عليه السلام ـ ظهرت براعم المغفرة في نفسه ، ثم بدأ أريجُها ينتشرُ في دنيا الغُفران ، إذ رجع نوحٌ على نفسه باللَّومِ والنَّدمِ ممّا وقع منه ، وراح في ابتهالٍ وصفاءٍ يسألُ الله عزَّ وجلَّ المغفرة والرَّحمة ، كيما يكون من الرَّابحين ، ولا يكون من الخاسرين .

* وفي همسات المستغفرين ، انطلقتِ الكلماتُ من فمِ نوحٍ حاكيةً ما يُكنُّه في فؤاده من مشاعر المغفرة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود : ٤٧] ، فقد استعاذ نوحٌ بالله ، ثمّ طلبَ منه المغفرة والرَّحمة ، وإلا سيكون ممّن خسروا أعمالهم[2] .

---

(١) قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ : وهذه زيادةٌ من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ، ويعليه إلى مقام العلماء والعارفين .

(٢) انظر : تفسير أبي السّعود (٤/ ٢١٣) بشيء من التصرّف .

* ولعلّنا قد لمحنا المغفرة ، ولمسنا أثرها في هذه القصّة ، ولعلنا نتعلّمُ كذلك بأنّ المؤمن الدَّاعية إلى الله رجَّاعٌ إلى الحقِّ والصَّواب ، إذا ما شعر بأنّه وقع في الخطأ ، وأنّه مستغفرٌ ربَّه ، وطالبٌ منه المغفرة ، ليبقى ويظلَّ في صفوف النَّاجين .

* * *

الفصل الثالث

قصّةُ استغفار نبيّ الله إبراهيم لأبيه

* نبيُّ الله إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ من الأنبياء الذين وردَ ذكرُهم كثيراً في القصص القرآني ، والذي يعنينا من تلكم القصص استغفارُ إبراهيم لأبيه ، الذي أبى أن يستجيب لدعوة إبراهيم .

* فقد وُلِدَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في بابل ، وكان أهلُها يعشقون عبادة الأصنام ، ويجعلونها أرباباً من دون الواحد القهَّار الغفَّار .

* ونشأ إبراهيمُ ، وآتاه الله الرُّشد ، وأمرهُ بالدَّعوة إلى الله ، لكنّه أُوذي وكُذِّبَ ، بل حاربه المشركون حرباً نادرةً في تاريخ الجرائم ، إذ أجمعوا على حرقه بالنّار ، فألقوه

فيها ، ولكنّ الله جعلها برداً وسلاماً عليه ، وأبطلَ كيدهم ، فكانوا هم الأخسرين .

* وخصَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أباه بالدَّعوة ، إذ أبوه أحقُّ النّاس بإخلاص النَّصيحة[1] له ، وكان أبوه ممّن يعبدُ الأصنام ، وممّن يصنعُها ، بل كان أبوه غارقاً في عبادة الأصنام ، وداعياً إلى عبادتها بصُنعه لها .

* ويروي القُرآن الكريمُ مناظرةَ إبراهيم لأبيه وقومه في عددٍ من المواضع والسُّور ، ومنها قوله تعالى : ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

* وفي موضعٍ آخر ، نجدُ إبراهيم عليه السَّلام ينصحُ أباه ، ونجدُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يمتدحُ إبراهيم ، ويصفه بأنّه من أهل الصِّدق في أخباره وحديثه ومواعيده ، وهو نبيٌّ أوحى الله

---

(١) اقرأ كتاب النصيحة في هذه السلسلة المباركة الطيبة .

إليه ونبّأه ، فقال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٤١] .

* وهذا النبيُّ الصدِّيق شأنُه أن يخلصَ النَّصيحة لأبيه ، ومن كالأب ؟! ؛ ويبدأ نصيحته بطريقةٍ لطيفةٍ فيناديه بلفظ ﴿يا أبتِ﴾ ، وتتكرر لفظة ﴿يا أبت﴾ أربع مرات في بضع آيات من سورة مريم ؛ وكل مرّة يبيِّن إبراهيم لأبيه ما يجعله من السُّعداء ، ويجعله من المغفور لهم إن اتبعه .

* ففي المرّة الأولى يسألُه ما يصنعُ بعبادةِ الوثن الذي لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني ولا ينفع ولا يضرّ .

* وفي المرّة الثّانية يخبرُ أباهُ بأنَّه قد جاءه عِلْمٌ من الله ، لم يطّلع عليه .

* وفي المرّة الثّالثة يحذِّرهُ من عبادة الشَّيطان الذي عصى الرحمن .

* وفي المرّة الرّابعة يختمُ نُصْحَهُ لأبيه بتحذيره من سوء عاقبته ، وعاقبة عبادة غير الله ، واتِّباع الشَّيطان .

* ولنقرأ تلكم الآيات ، ونستمعُ من خلالها إلى نصيحة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لأبيه ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤١ـ٤٥] .

* ترى ، كيف ردَّ آزر على ابنه إبراهيم ؟!! لقد كان ردُّه عنيفاً ساخطاً ، فيه العنف والتهديد والوعيد والاستفهام ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] .

* نعم هدَّد آزر ابنه إبراهيم بالمقال والفعال ، وبالقطيعة والهجران ، وتجاهل نبوَّته ، وأنكر حَدَبَه عليه وشفقته به .

* ويتعجَّبُ آزر من دعوة ابنه إبراهيم ، ويستنكرُ قائلاً : أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم وكاره لها ولعبادتها ، ومعرضٌ عنها ؟ أوبلغ بك الأمرُ إلى هذا الحدّ من الجراءة ؟!

فاغرب عن وجهي ، وابعد عني طويلاً استبقاء لحياتك إن كنتَ تريدُ النّجاة .

* بهذه الجهالة العمياء تلقّى آزرُ الدّعوة إلى الهدى والمغفرة ، وبهذه القسوة العنيفة قابل القولَ اللطيف المؤدَّب الرفيق .

* ولكنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وهو الذي وصفه ربُّه بالحلم فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] ، كان في ذِرْوَةِ الحِلْمِ ، فلم يغضب ، ولم يَفْقِدهُ ردُّ أبيه وقسوته البرَّ والعطف عليه ، بل والأدبَ معه ، ولجأ إلى درب المغفرة كي يسلكه مع أبيه ، وقال له : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧] ، قال له : سلامٌ عليك ، فلا يصلكَ منّي مكروه ، بل أنتَ سالمٌ من ناحيتي ، سلامٌ عليكَ ، فلا جدالَ ولا أذى ، ولا ردَّ للتهديد أو للوعيد الذي وعدتني ، وسأدعو الله أن يغفر لك ، فلا يعاقبك بالاستمرار في الضَّلال والإضلال وتولّي الشَّيطان ، بل يرحمك ويرزقك الهدى .

* وفي قول إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لأبيه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم : ٤٧] إنَّما هو وعدٌ من إبراهيم لأبيه باستغفاره له ، وقد وفّى بذلك الوعد ، كما قال الله عنه : ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء : ٨٦] ، ولكن لما تبيَّن لإبراهيم أنَّ أباهُ عدوٌّ لله تبرَّأ منه ، ولم يستغفر له بعد ذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة : ١١٤] .

* أمّا استغفارُ إبراهيم لأبيه آزر مع كون الاستغفار ليس بجائزٍ للكَفَرة ، فيجوزُ أن يكونَ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ أوَّل نبيٍّ أُوحيَ إليه أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يغفرُ لكافرٍ ، لأنَّ هذا طريقه النَّقل لا غير ، وكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه بعدم الجواز ، قاله ابنُ عطية[1] .

* ويحتملُ أنَّ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ قد علمَ أنَّ أباهُ عدوٌّ

---

(١) انظر : تفسير البحر المحيط لأبي حيّان (٦/ ١٩٥ و ١٩٦) .

لله عند موته على الشِّرك ، أو بوحيٍ من الله تعالى أنّه لن يؤمن أبداً[1] .

* وفي الصَّحيح أخرجَ البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبي ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لكَ لا تعصني ؟!

فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك .

فيقول إبراهيم : يا ربِّ إنَّك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون ، فأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد ؟

فيقول الله : إنّي حرَّمتُ الجنَّة على الكافرين .

ثم يُقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟

فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ ، فيُؤخذ بقوائمه فيُلقى في النار[2] .

---

(١) انظر : تفسير أبي السّعود (٤/١٠٨) بتصرّف يسير .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء برقم (٣٣٥٠) ، وفي التفسير =

* إنَّ استغفارَ إبراهيم لم ينفع آزر ، لأنَّه لم ينتفع بدعوة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ ولم يؤمن بالله ؛ لذلك ابتعدت عنه المغفرةُ لأنّه لم يردها ، والله غالبٌ على أمره .

* * *

= برقم (٤٧٦٨) ؛ ومعنى « قترة » : شدّة الغبرة بحيث يسود الوجه ؛ والمعنى هنا : السَّواد الكائن عن الكآبة . « غبرة » : ما يعلو الوجه من الغبار . « ذيخ » : الذيخ : ذكر الضباع . « ملتطخ » : أي في رجيع أو دم ، أو طين .

الفصل الرابع

قصَّةُ المغفرة في حياة نبيِّ الله يُوسف وإخوته

*إذا قُلنا إنَّ قصَّة نبي الله يوسف ـ عليه السَّلام ـ من أشهر القصص القرآني ، فلا نكون مبالغين في ذلك ، لأن قصَّة يوسف ـ عليه السَّلام ـ يعرفُها الخاصُّ والعام ، بل إنَّ أغلبَ النَّاس يعرفونها ، ويعرفون تسلسل أحداثها من البداية إلى النهاية .

* ولكنَّ بعض النَّاس لا ينتبهون إلى عنصر المغفرة والاستغفار ، الذي توَّجَ هذه القصَّة العظيمة ، التي استغرقت سورةً مكيّةً كاملةً ، تحكي قصَّة نبي الله يوسف ـ عليه السَّلام ـ وما فيها من مواقف آسرة ساحرة مؤثِّرة في النُّفوس والقلوب ، وهي تشدُّ القارىء من موقفٍ لآخر ، ومن محنةٍ إلى أخرى ،

حتى تصل إلى المنح الإلهيّة لهذا النبي الكريم ، وتوَّج كل محنه بذروة مكارم الأخلاق وهي المغفرة والتجاوز عن أخطاء إخوته الذين كادوه ، وكادوا أباهم يعقوب ـ عليه السَّلام ـ فما أمتعَ لحظة مغفرة الذَّنب والاستغفار للخاطئين!! وما أحلى تلك اللحظات التي تجعلني أتذوَّقُ معاني المغفرة تذوُّقاً خاصّاً ـ أشير إليها ولا أمتلك التعبير عنها أو ترجمة كلماتي على الأوراق في الحديث عنها ـ تلك اللحظات العطرات الخالدات في دنيا المغفرة يوم أن قال يوسفُ لإخوته : ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] .

* وليعذرني القارىء الكريمُ إذا أظهرتُ عجزي عن كتابة مشاعري في هذا الموقف النبيل الكريم من الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم نبي الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصَّلاة والسَّلام .

* إنَّ قصَّة يوسف عليه السَّلام مفعمةٌ بكلِّ معاني الفضيلة ، من حيث إن هذا النبي الكريم جعل المغفرة عنوان

معاملته مع إخوته ، حيث كانت الأحقادُ صغيرةً في قلوبهم بادىء الأمر ، ثم بدأت تكبرُ وتتضخَّمُ حتى حجبت في ساعةٍ من ساعات الضَّعف هولَ الجريمة عن ضمائرهم ، ثمَّ زيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ ما يخرجون به من تلك الجريمة ، إذ ألقوا أخاهم في غيابة الجبِّ ، ولكنَّ اللهَ كان هو الغالب على أمره ، وإخوة يوسف لا يعلمون .

* إلا أنَّنا نجدُ هؤلاء الإخوة هُمُ هُمُ أو قريباً من هُم ؛ وذلك في كلِّ مواقفِ قصَّةِ يوسف عليه السَّلام .

* فمنذُ البدايةِ ألقوه في غيابة الجبِّ ، ثم زعموا ـ وهم يفتعلون البكاء ـ أنَّ الذِّئب قد أكلَهُ ، ثم جاؤوا على قميصه بدمٍ كذبٍ ، وهم ظالمون له وللذِّئب المزعوم أيضاً .

* وعند مشارف النِّهاية نجد موقفهم هو هو ، فعندما ذهبوا إلى مصرَ ليشتروا منه القمحَ في سنواتِ الجَدْبِ العجافِ ، حسبوه عزيز مصر ، وكان معهم أخوه الشَّقيقُ بنيامين الذي أفهمه يوسفُ أنَّه أخوه ، وأخذه بحجَّةِ أنَّه وجدَ

صُواعَ المَلِكِ في رَحْلِه ، هنالك قالوا وهم يلوكون حقدهم القديم على يوسف وأخيه بنيامين : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ ﴾ [يوسف : ٧٧] ، ونلحظ أنَّهم اتَّهموا يوسفَ بالسَّرقة هنا .

* وتتكرَّرُ المواقفُ عينُها ، فهاهم يواجهون أباهم ـ وهو في شيخوخته الحزينة ـ بحقدٍ قديمٍ على يوسف دون أن يراعوا شيخوخة أبيهم ، ونكبته الأليمة التي هم سببها : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف : ٨٤ـ٨٥] .

* ومثلُ هذا قد حدثَ حينما قال لهم : ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [يوسف : ٨٧] ؛ وكان يوسف ـ في نهاية المطاف ـ قد أرسلَ قميصه إلى أبيه ـ بعد أن عرَّفهم نفسه وأنّه يوسف الخير أخوهم ـ وعندما رأوا أباهم يستنشق عبير ابنه يوسف ، غاظهم حدسُ أبيهم ، فلم يملكوا مشاعرهم ، وأفصحوا عن حقدهم عندما ﴿ قَالَ

أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٩٤] ، وانفجروا قائلين ، ولسان الحقد يترجم عمّا بداخلهم من حسد : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] .

* ولكن ما موقفُ يوسفَ وهو يواجه إخوتَه للمرّة الأولى في مصر وقد عرفهم ، ولم يعرفونه وقد فعلوا ما فعلوا ؟

* إنَّه الآن هو الأقوى ، ومادام قوياً فماذا يفعل ؟!

اللهُ أكبرُ ، إنّه يتّصفُ بذروة المغفرة في الانفعالات والتصرُّفات ، أليس اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد قال عنه وفي حقِّه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] ؟!

* بلى إنَّه من المُخلَصين الأخيار الذين يتجاوزون عن الأخطاء والعثرات ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون .

* نعم ، فقد اعترفَ إخوةُ يوسفَ بالخطأ قائلين : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩١] .

* ترى بماذا أجابهم يوسف ، وبم قابلهم وقد عقدتِ الدَّهشةُ ألسنتهم ؟!

* لقد تملَّكَتْهُ الرَّغبةُ العظيمةُ بالصَّفحِ والعفو والمغفرة ، وهتف يقول ورذاذ المغفرة والصَّفح يصيبهم جميعاً : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] ، إنَّهم ليذوبون خجلاً من يوسف ، وهم يسمعون قرار العفو والمغفرة من أخيهم عزيز مصر . . . وهاهو يدعو لهم بالمغفرة ، ويذكِّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة[1] .

---

(١) لقد تمثَّلَ لإخوة يوسف أمام عيونهم ، بل وفي قلوبهم صورة ما فعلوه بيوسف ، وجللهم الخجل وهم يواجهونه محسناً غافراً إساءتهم ، حليماً بهم ، كريماً معهم ، فاعترفوا بالخطيئة ، وأقرُّوا بالذَّنب أمام شيمة أخيهم الكريم الذي أنهى هذا الموقف المخجل المحرج ، بألا مؤاخذة ، ولا تأنيب اليوم ، فالله عز وجل يتولاكم بالمغفرة ، فهو الغفّار ، وهو أرحم الراحمين ، ثم إنه يحسمُ الموقف نهائياً ، ويحوّل الحديث للسؤال عن أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن ، فأرسل له قميصه ، وأمرهم أن يلقوه على وجه أبيه كيما يأتي=

* ثمّ إنّه أعطاهم قميصَه[1] لينطلقوا به ، ويُلقوه على وجه يعقوب فيرتدّ بصيراً ، وفعل الإخوة ما أمرهم به أخوهم ، فارتدّ يعقوب بصيراً ، عندما ألقى البشير قميصه على وجه يعقوب ، وهتف الأبُ قائلاً لأبنائه وذويه :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٦]

وهنالك بكى الإخوة بكاء النّادمين عند قدمي أبيهم نبي الله يعقوب ، واعترفوا بذنبهم ، وهاهم يطلبون منه أن يستغفرَ لهم لعلّهم يحظون برحيق المغفرة ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ

= بصيراً ، كما أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين ، كما قصَّت علينا ذلك كاملاً مفصّلاً سورة يوسف من أوّلها لآخرها .

(١) قيل : إنَّ هذا القميص هو قميص إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما أُلقي في النّار ، وإنَّ جبريل ـ عليه السَّلام ـ جاء به إلى يوسف عندما أُلقي في الجبّ ، واحتفظ به يوسف ، ولبسه للمرّة الأخيرة ، ثم أعطاه لإخوته ، ليلقوه على وجه أبيهم يعقوب الذي ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .

إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [يوسف : ٩٧ـ٩٨] .

* إنّنا نلمحُ هنا أنّ يعقوب ـ عليه السّلام ـ قد أجّلَ الاستغفار لوقتٍ آخر ، قيل إنّه وقت السَّحَر ، إذ إنّه أحرى بالإجابة ، قال تعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾

[آل عمران : ١٧] .

* وقد ثبتَ في الصَّحيحين عن النَّبي ﷺ أنّه قال : « ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا فيقول : هل من تائب فأتوب

---

(١) لعلَّه من الفائدة هنا أن نشير إلى استحباب إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى فيه العبدُ أنّه أحضرُ قلباً من غيره ، أو أنّه يتحرّى أفضلَ الأوقات وأقربها للإجابة .

وقد عُرف في السُّنّة النبويّة تخصيص الأوقات الفاضلة للاستغفار والدعاء ، كوقت السَّحَر ، وعقب الصلوات ، وعقب قضاء الحج ، وكذلك في السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، وعند الإفطار من الصّيام ، والله أعلم (محاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٢٧٨) .

عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له . . . ؟ »[1] .

* لهذا أجَّلَ يعقوب ـ عليه السَّلام ـ استغفاره لأولاده إلى وقتٍ قمينٍ بالإجابة ، وهو وقت السَّحَر .

* قال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ وغيره من كبار التابعين : أرجأ يعقوب بنيه إلى وقت السَّحَر ليستغفر لهم .

* وذكر ابنُ جرير الطَّبري أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يأتي المسجد ، فسمع إنساناً يقول : اللهمَّ دعوتني فأجبتُ ، وأمرتني فأطعتُ ، وهذا السَّحَر فاغفر لي .

* فاستمعَ الصَّوتَ فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إنّ يعقوب أخَّرَ بنيه إلى السَّحَر بقوله : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾[2] [يوسف : ٩٨] .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجُّد برقم (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين برقم (٧٥٨) .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٦٤) .

* وقد ورد في حديث : إنَّ يعقوبَ أرجأَ بنيه إلى ليلة الجمعة[1] .

* روى ابنُ جرير بسندٍ رفعه إلى ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف : ٩٨] ، حتى تأتي ليلة الجمعة ، وهو قول أخي يعقوب لبنيه[2] .

* إنَّ العفوَ والصَّفحَ والمغفرةَ ذروةُ الفضل في قصَّة يوسف التي وصفها الله بأنّها أحسنُ القَصَص ، ولذلك ذكرَ الخرائطي عن عِكرمة[3] أنّه قال : قال اللهُ تعالى

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٦٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه . وقال ابن كثير : وهذا الحديث غريب من هذا الوجه ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) عكرمة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة القرشي ، روى عن أبيه ، وأبي هريرة ، وابن عباس ، وابن عمرو ، وأبي الطفل وغيرهم رضي الله عنهم . وعنه : أيوب ، وابن جريج ، وعبد الله بن طاووس ، وآخرون ؛ قال ابن سعد : كان ثقة . (تهذيب التهذيب ٧/ ٢٥٨) .

ليوسف : يا يوسف بعفوك عن إخوتك[1] ، رفعتُ ذكركَ في الذَّاكرين[2] .

* * *

(١) من الدروس المستفادة في قصَّة يوسف وإخوته : أنّ العبرة في حال العبد بكمال النهاية ، لا بنقص البداية ، فإنَّ إخوة يوسف جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ، ثمّ انتهى أمرهم إلى التوبة النَّصوح ، والسَّماح التام من يوسف وأبيهم ، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة . (تفسير السعدي ٤/ ٧٠) بتصرّف يسير .

(٢) مكارم الأخلاق ومعاليها (ص ٨٥) .

الفصل الخامس

نبيُّ الله موسى ومغفرةُ الغفورِ الرَّحيم

* في كتاب ربِّنا عزَّ وجلَّ آياتٌ مبيّناتٌ ، وقصصٌ واضحاتٌ ، تتحدَّثُ عن فضيلةِ المغفرةِ ، وعن مكارمِ الغفران ، كما تشيرُ إلى طبائع الإنسان التي تطلبُ المغفرةَ من الكريم المنّان .

* وفي حنايا القَصَص القرآني تبرزُ قصَّةُ نبيٍّ كريمٍ من أُولي العزمِ من الرُّسل ، وهو يُتوَّجُ بالمغفرة من الغفور الرَّحيم ، إثر حادثةٍ كان لها كبير الأثر في نفسه ، إنّه موسى الكليم عليه السَّلام :

يا نبيَّ اللهِ يا موسى الكليم أنتَ ذو فَضْلٍ وذو جاهٍ عظيمْ

* نعم ، فهو مَنْ خاطبَه مولاه بالهدى في الطُّور :

هذا الذي بالهدى مولاه خاطبه بطوره المجتبى في داجي الظُّلمِ
حباهُ منهُ بأنوارٍ أضاءَ له منه الوجود بحقٍّ غير منكتمِ
لازال بالعزمِ في قولٍ وفي عملٍ للتِّسع آياتٍ يُبدي عالي الهممِ[1]
لم يخشَ في ذاك إلا الله خالقه كأنّهم عنده من جملة النعمِ

* وموسى ـ عليه السَّلام ـ من أكثر أنبياء الله ذِكْراً في القرآن الكريم في سوره المكيّة والمدنيّة ، ولكننا سنعيش في هذه الصَّفحات المباركات مع إحدى السُّور المكيّة التي تتحدَّثُ عن نبأ موسى وقصَّته منذ مولده ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته ، ثم نتحدَّثُ عن فتوَّته وصباه ، وما آتاه الله من الحِكَمِ والعلمِ ، وما وقعَ فيها من قَتْلِ رجلٍ قبطي ، وطلبه المغفرة من الله عزَّ وجلَّ ، هذه السُّورة هي سورة القصص التي تعدُّ آياتها (٨٨ آية) ، جاء الحديث في (٤٤ آية) منها عن

---

(١) الآيات التسع هي : العصا ، اليد ، الجراد ، القُمَّل ، الضفادع ، الدّم ، الحجر ، البحر ، والطور الذي نتقه الله على بني إسرائيل .

موسى عليه السَّلام ، وما رافقه من أحداث في حياته ، كما تتحدَّثُ عن نفحاتِ الغفران والمغفرة التي طلبها موسى من الغفّار ، ربِّ السماء والأرض الواحد القهَّار .

* فقد وُلِدَ نبيُّ الله موسى في ظلال أوضاع قاسية ومدهشة في آنٍ واحدٍ ، حيثُ أحسَّ فرعون مصر الطاغية الذي علا في الأرض وتجبَّر وتكبَّر ، وجعل أهل مصر شيعاً ، واستخفَّهم فأطاعوه ، وبغى على بني إسرائيل لأنّهم يدينون بدين إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وأنكروا ألوهية فرعون المزعومة ، فأحسَّ بخطرهم ، فابتكر طريقةً خبيثةً لا تهتدي إليها الشَّياطين للقضاء عليهم ، ومن ذلك تسخيرهم في الأعمال الخطيرة ، وتعذيبهم بألوان العذاب ، ومع هذا وبعدَه وقَبْلَه أمرَ بذبح الذُّكور من أطفالهم عند ولادتهم ، واستبقاء الإناث ، ولا يخفى ما في هذا من نكال وعذاب وخبث .

* رُوي أنَّه وكَّلَ بالحوامل من نسائهم قوابل يخبرنه بمواليد بني إسرائيل ، كيما يبادر بذبح الذُّكور فور ولادتهم حسب ما رسمه من خطَّةٍ خبيثةٍ ، تلك الخطَّة الآثمة التي

لا تستشعر رحمةً بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة .

* ولكنَّ موسى ـ عليه السَّلام ـ نجا من كيد فرعون وعمله ، وتظهرُ يدُ القدرةِ الإلهيّة التي تعملُ واضحةً بلا ستار أو قناع .

* لقد وُلِدَ موسى والخطرُ مُحْدِقٌ به من كلِّ جانب ، والموتُ يتلفَّتُ عليه ، وشفراتُ الذبّاحين مشرعة على عنقه ، وهاهي أمُّه خائفة عليه ، حائرةٌ به ، تخشى أن يصل خبر وليدها موسى إلى الطُّغاة الظالمين الغاشمين ، ويرتجفُ فؤادها هلعاً أن تتناول عُنُقَ فتاها الصَّغير سكين الغدر ، وهاهو موسى طفلها الصغير تعجزُ عن حمايته وإخفائه ، بل عاجزة أشدّ العجز عن إخفاء وحجزِ صوته الفطري الذي يدلُّ عليه عندما يطلبُ ثديها ، إنّها عاجزة تمام العجز عن حمايته ، وها هنا تتدخَّلُ يدُ القدرة والعناية بالأمِّ الرَّؤوم ، لتنقلها إلى شاطىء الأمان ، ويأتي الوحي بألا تخاف ولا تحزن على هذا الرَّضيع الميمون موسى . . . وتأمرها بأن تُرضعَه ثمّ تلقيه في اليمّ ، وأنّه سيُرَدُّ إليها ، وسيكونُ من المرسلين .

* إلاَّ إنّها بشارة الغد القريب بأنَّ هذا الرَّضيع الذي أمامها الآن سيكونُ من المرسلين ، وسينجو من آل فرعون ، ومن ظلمهم .

* وفي ثنايا الآيات القرآنية التي تروي قصَّة موسى برويٍّ الأنداء العطرات ، نجد موسى ـ عليه السَّلام ـ في بيت فرعون وهم لا يشعرون ، بل إنَّ امرأة فرعون الطّاهرة عبَّرتْ عن رأيها في موسى بصراحة وقالت مخاطبة زوجها فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾[1] [القصص : ٩] .

---

(١) إنَّ الموقفَ النَّبيلَ والشّجاع الذي وقفته امرأة فرعون في حماية موسى الرَّضيع من بطش فرعون وهي تقول : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص : ٩] ، هو موقف كريم يوضح إلى أي مدًى كان قلبُ تلكم المرأة التقية الزكية عامراً بالخير وبالحب وبالعطف وبالرحمة ، ودافعت تلكم المرأة عن موسى عندما كان طفلاً ، كما جاء في الأثر وقالت : إنّه طفلٌ لا يفهمُ ما يقول ، ولا يميّز .

وعندها اقترح فرعونُ أن يُعطى الطّفلُ موسى تمرة =

* يا لله ، يا للقدرة ، لقد تغلغلت يدُ القدرة الإلهيّة قلب فرعون ، وقلب امرأته بعد أن اقتحمت به عليه حصنه المنيع ، إلا من تدبير الله ، فقد ألقى اللهُ محبَّة موسى في قلب امرأة طاهرة نقيّة تقيّة هي امرأة فرعون[1] ، وتحدَّت بذلك قسوةَ

= وجمرة ، فإن ميَّز بينهما قتله ، وحمى اللهُ الطفلَ ، فوضع الجمرة في لسانه فصار ألثغَ منذ ذلك اليوم ، ولذا طلب موسى من ربِّه أن يُرسلَ معه هارون لأنه أفصح منه لساناً .

ومن الجدير بالذِّكر أن تلكم المرأة الطّاهرة ـ التي كانت لموسى أماً ثانية ـ قد آمنت بموسى وبرسالته ، وبالله الواحد القهّار .

(١) ذكر أبو السُّعود ـ رحمه الله ـ نكتة لطيفة رائعة في قولِ امرأة فرعون ﴿لا تقتلوه﴾ فقال : خاطبَتْهُ ـ أي لفرعون ـ بلفظ الجمع تعظيماً ليساعدها فيما تريده . (تفسير أبي السعود ٧/ ٤) .

وربما يكون الخطاب موجّهاً إلى فرعون ومن حوله ومعه من الجنود ، وكأنها بذلك تستعطف جميع الحاضرين ، ليكونوا معها ضدَّ فرعون في عدم قتله للطفل موسى .

فرعون وحرصه وحذره ، نعم ، من مأمنه يُؤتى الحَذر ، وهان فرعونُ على الله أن يحمي منه هذا الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف الرقيق البسيط .

* إنّها قُدْرَةُ الله التي سَخِرَتْ وسخَّرَتْ فرعون ليحمي موسى ، نعم ليحمي موسى!

* ولكن ؛ ما حالُ قلب أمِّ موسى ؟ وما أخبارُها بعد أن ألقت بصغيرها في اليم ؟

* لقد أمرت أخته أن تتلمَّس خبره ، وذهبت الأختُ العطوفُ تقصُّ أثرهُ ، فبصُرَتْ به عن بُعدٍ في أيدي خدم فرعون ، يبحثون عمّن يُرضعه ، فدلَّتهم على مرضع له ، فكانت أُمُّه الحقيقية هي المرضع ، وكان آل فرعون هم المستبشرون بهذه المرضع التي أتاحتها لهم يدُ القدرة الإلهيّة على حين غفلةٍ منهم ، وينجو الطفل المحبوب ، ويعودُ إلى أحضان أُمِّه ، وهي قريرةُ العين ، مسرورة الفؤاد .

* وعاشَ موسى في كنف أُمِّه حتى غدا شاباً قد بلغ أشُدَّه

واستوى ، وآتاهُ الله الحكمة والعلم ، وجزاهُ جزاءَ أهل الإحسان .

* وذات يوم ، دخل موسى المدينة على حين غفلةٍ من أهلها ، وذلك نصف النهار ؛ أو بين العشاءين ، وفي ذلك الوقت وجد فيها رجلَيْن يقتتلان ويتضاربان ، أحدهما إسرائيلي من شيعته ، والآخر قبطي من أعدائه ، ويبدو أنّه من حاشية فرعون .

* وحانت التفاتةٌ من الإسرائيلي ، فرأى موسى قريباً منه ، فاستغاث به مستنجداً به على عدوّهما القبطي ، فتقدّم موسى فوكزهُ وكزةً كان فيها حتفُ القبطي ، فكان كأمس الدّابر ، ومات القبطي ، ولم يكن موسى يقصد قتله ، ولم يعمد إلى القضاء عليه ، فما كاد موسى يرى القبطي جثّة هامدة لا حراك بها ، ولا روح فيها ، حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشّيطان و ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] .

* وهنا تبدأ رحلة الغفران مع موسى ـ عليه السلام ـ فقد

كان الغفرانُ نعمةً عظمى عليه ، وحافزاً لرحمته وداعياً لسلامه ، والتجأ إلى ربِّه في تلك السَّاعة الحرجة ، وهو معترفٌ بظلمه لنفسه أن حمّلها هذا الوِزْرَ الخطير ، وتوجَّه بقلبه ونفسه إلى الله يطلبُ مغفرته وعفوه وهو يقول : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص : ١٦] .

* وهنا تنزَّل غيثُ الرَّحمة والمغفرة ، إذ استجاب الله إلى ضراعة موسى ، وإلى استغفاره ، وإلى طلبه الغفران ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص : ١٦] .

* وبقلبٍ يتدفَّقُ بحرارة الإيمانِ أحسَّ موسى أنَّ الله قد استجابَ رجاءه ، وغفر له ، فالقلبُ الموصولُ بالله على أساسٍ صحيحٍ يحسُّ بالاتصال والاستجابة للدُّعاء فور الدُّعاء .

* واطمأنَّ وجدانُ موسى وهو يستشعرُ الاستجابة من ربِّه ، ويلمسُ المغفرة منه ، ويحسُّ بظلالها تقيه حرارة الذَّنب ، فاعتبر ذلك نعمةً من أجَلِّ النِّعم ، فإذا به يَعِدُ ربَّه ويعاهده بألا يكون في صفّ المجرمين ، وذلك عرفاناً منه

بسواطع المغفرة التي أضاءت قلبه ووجدانه ، وهنالك هتف قائلاً : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧] .

* نعم لقد ظهرت ثمارُ المغفرة في نهاية هذه القصَّة ، وآتت أُكُلها في ذروتها ، فكان الغفور الرحيم ينزل غيث غفرانه على نبيِّه وكليمه موسى عليه السلام :

فهو الكليمُ لربِّ العالمين كما ... أَتَتْ بذاك نصوصُ الكتبِ والرُّسُل

صلَّى الإلـه عليـه دائمـاً وعلـى ... نبيِّنـا مـن سَنـا عليـاه مكتمـل

ما لاح ضوءُ صباحٍ وانقضى غسقٌ ... من الظَّلامِ وسحَّ الوابلُ الهطل

* * *

الباب الخامس

المغفرة في الهدي النبوي

الفصل الأول : المغفرة والاستغفار في التربية النبوية .

الفصل الثاني : كيف دعا الهديُ النبويُّ إلى المغفرة ؟

الفصل الأول

المَغْفِرَةُ والاسْتِغْفارُ في التَّربيةِ النَّبويَّةِ

* فطرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسان ، وجعلَ إرادتَه ذات سلطان بين كفتي ميزان ، فذات اليمين تميلُ به إلى الخيرات ، وذات الشِّمال تنزعُ به إلى الفسوق والعصيان .

* وقد خُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً بين هاتَيْن النّاحيتين ، لذا فإنّه في عرضةٍ للكبوات والعثرات .

* إنَّ هذا هو الواقعُ المشهور في تكوين الإنسان الذي فُطر عليه ، وهو الواقع الذي دلَّت عليه وبيَّنته النُّصوص القرآنية ، والسُّنَّة النَّبويَّة .

* ولما كان الإنسانُ عُرضةً للكبواتِ والعثراتِ واقترافِ الخطيئات ، كان من حكمة الله التَّربويّة له أن تُتْرَكَ له بضع

فُرصٍ للاستغفار ، وطلب المغفرة من العزيز الغفَّار ، وذلك كيما يعمل على الاستقامة والإصلاح ، ويكون ذلك له بمثابة تطهير يغسله من أكدار الآثام التي عَلقَتْ به ، كما تُغْسَلُ الثِّيابُ من أدرانها ، وما يَعْلَقُ بها من أوساخ .

* ولولا فضلُ الله على عباده بالحفظ ، ورحمته لهم بالغفران والعفو ، ما زكا من النّاس من أحدٍ إلا من عصمَهم الله بعصمته ، لأنَّ الطبيعة البشريّة قابلةٌ للخطأ ، وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح المشهور : « يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً » .

* لذلك فتحَ اللهُ عزَّ وجلَّ للإنسان أبوابَ المغفرة والاستغفار ، وأطمعه بالغفران ، وبالعفو ليقيل عثراته .

* إنَّ واقع حال الضَّعف البشري ، هو الذي يجعل الإنسان ينزلقُ إلى الخطيئة ، وارتكاب الإثم يستدعي من حكمة الغفور واقعية تربوية وجزائية وإصلاحية ، ففتح الله العليمُ الرَّحيمُ أبوابَ الاستغفار للإنسان ، والإنابة إلى طريق الطّاعة ، وهيّأ له بذلك أهون الوسائل وأكرمها ، ليتخلَّص من

الإثم ، ويلقي عن كاهله وظهره أثقال الأوزار ، ليتابع مسيرته في الحياة سالكاً سواء السَّبيل .

* وفي قصَّة آدم وحوَّاء ـ كما مرَّ معنا ـ بأكلهما من الشجرة التي نهاهما اللهُ عنها ، قد أخرجَتْهُما من الجنَّةِ ، ثم تداركهما اللهُ برحمته ، فتاب عليهما بعد أن استغفرا وطلبا منه الصَّفح عمّا سلف .

* وقد ورثت ذريتهما الدوافع إلى المعصية ، وضعف الإرادة ، وكما تداركهما اللهُ برحمته ، تدارك ذريّتهما بفَتْحِ أبواب الغفران والعفو والاستغفار لهم ، وأبان لهم الله أن من أخرجته الخطيئةُ من الجنّة ، أعادته إليها أسباب الاستغفار ، وشمله الله بغفرانه وعفوه ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٥] .

* * *

الفصل الثاني

كيف دعا الهَديُ النَّبويُّ إلى المغفرةِ ؟

* في الهَدي النَّبويِّ آثارٌ حِسانٌ في مجالِ المغفرة والاستغفار ، وهذا الهديُ ممزوجٌ بالتَّربية الإلهيَّة ، فقد أمر الله عزَّ وجلَّ رسولَه بالاستغفار فقال له : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر : ٣] .

* وثبت في الصَّحيح أنَّ رسول الله ﷺ كان يستغفرُ ويتوبُ إلى الله أكثر من سبعين مرَّة ؛ فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « واللهِ إنّي لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٧) ، والترمذي برقم (٣٢٥٥) .

* وثبتَ أيضاً في صحيح مسلم عن الأغرّ المُزني الصَّحابي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّه ليغانُّ على قلبي ، وإنّي لأستغفرُ الله في اليوم مئة مرّة »[1] .

* وفي الهدي النَّبويّ إرشاداتٌ واضحاتٌ إلى طريق المغفرة الذي يؤدي إلى الجنّة ، فقد جاء في الصَّحيح عن شداد بن أوس رضي الله عنه ، عن النَّبي ﷺ قال : « سيِّدُ الاستغفار أن يقولَ العبدُ : اللهمَّ أنتَ ربّي لا إله إلا أنت ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢) ، وأبو داود برقم (١٥١٥) ، ومعنى « ليغان » : من الغين ، وهو الغيم ، ويُراد من الغين الذي يعتري القلوب ، فيجعلها تفتر عن مراقبة الله وذكره ، فيكون الاستغفارُ صارفاً للغيم ، ويكون بمثابة جلاء للقلوب .

قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ : أرادَ ما يغشاهُ من السَّهْو الذي لا يخلو منه البشر ؛ لأنَّ قلبه ﷺ كان مشغولاً بالله تعالى ، فإن عرض له وقت ما عارضٌ بشري يشغله عن أمور الأمّة والملّة ومصالحهما ، عدّ ذلك ذنباً ، فيفرغ إلى الاستغفار .

خلقتني وأنا عبدُكَ ، وأنا على عهدكَ ووعدكَ ما استطعت ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعت ، أبوءُ لك بنعمتكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي ، فاغفر لي ، فإنّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلا أنت ؛ من قالها بالنّهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنّة ، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنّة »[1] .

* ومن الهَدي النَّبويّ نصيبٌ وافرٌ لتعليم الصَّحابة الكرام طريقة المغفرة ، فقد جاء في السُّنن عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كنّا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرّة : « ربِّ اغفر لي ، وتُبْ عليَّ ، إنّك أنتَ التوَّابُ الرَّحيم »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٦) ، والترمذي برقم (٣٣٩٠) ، والنسائي (٨/ ٢٧٩) . و « أبوء » : أُقرُّ وأعترف .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (١٥١٦) ، والترمذي برقم (٣٤٣٠) ، وقال : حديثٌ صحيح ، وابن ماجه برقم =

* ونقلَتْ لنا أُمُّ المؤمنين عائشة جانباً من حياة رسول الله ﷺ ، وهو يعيشُ في نعيم المغفرة والاستغفار فقالت : كان رسول الله ﷺ يُكثرُ من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفرُ الله وأتوبُ إليه » .

قالت : فقلتُ : يارسول الله ، أراكَ تُكثرُ من قولِ سبحان الله وبحمده ، أستغفرُ الله وأتوبُ إليه ؟

فقال : « خبَّرني ربِّي أنّي سأرى علامةً في أُمّتي ، فإذا رأيتُها أكثرتُ من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفرُ الله وأتوبُ إليه ، فقد رأيتُها ، إذا جاء نصرُ اللهِ والفتح ، فتح مكة ، ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبِّح بحمد ربِّكَ واستغفره إنّه كان توّاباً »[1] .

* ولقد فهم السَّلفُ عن الخَلَفِ أنَّ المغفرة طريقُ الهداية

= (٣٨١٤) ، وابن السّني في عمل اليوم والليلة برقم (٤٥٨) .

(١) أخرجه مسلم في الصّلاة برقم (٤٨٤) .

إلى نعيم الله المقيم ، فقد جاء عن الرَّبيع بن خثيم ـ رحمه الله ـ بما يخصُّ الاستغفار وطلب المغفرة من الله أنّه قال : لا يَقُلْ أحدُكم : أستغفرُ الله وأتوبُ إليه ، فيكون ذنباً وكذباً إن لم يفعل ، بل يقول : اللهمَّ اغفر لي ، وتُبْ عليَّ ، وهذا الذي قاله من قوله : اللهمَّ اغفر لي وتُبْ عليَّ حسن .

* وأمّا كراهية أستغفرُ الله وتسميته كذّاباً فلا نوافق عليه ، لأنَّ معنى : أستغفرُ الله ، أطلبُ مغفرته ، وليس في هذا كذب ، فقد جاء في السُّنن عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قال أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيُّوم وأتوبُ إليه ، غُفِرَتْ ذنوبه وإن كان فرَّ من الزَّحف »[1] .

* * *

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥١٧) ، والترمذي برقم (٣٥٧٢) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١١) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم .

الباب السادس

من دروس المغفرة في السيرة النبوية وحياة الصحابة

الفصل الأول : يغفرُ الله لكم .

الفصل الثاني : استغفار أبي سفيان وفضالةَ بن عمير .

الفصل الثالث : غفرَ الله لك .

الفصل الرابع : أُمُّ حذيفة بن اليمان وطلبها الاستغفار من النَّبي ﷺ .

الفصلُ الأوّلُ

﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

* في يوم الفتح الأعظم ، فتح مكّة ، وقف رسول الله ﷺ أعظمَ مواقف الشُّكر في الفتح ، إذ كان العفوُ والمغفرةُ منه عند المقدرة الكاملة ، فلم تكن غزوةُ فتح مكّة غزوة قتال ، بل كانت غزوة سلام ومسألة ووفاء للصديق ، وتأديباً للعدو ، وتربيةً للمحبِّ .

* فقد كان رسول الله ﷺ في دخوله مكّة يوم الفتح مفعم المشاعر ، روي الإحساس ، مشرق الوجدان ، تبرقُ أساريرهُ بالفرحة العظمى ، وتُضيء روحه المشرقة بنور تقدير نعمة الله عليه حقَّ قَدْرها ، وعرفانه فَضْلَ الله عليه وعلى أصحابه الذين آمنوا به ، وعزَّروه ونصروه ، واتَّبعوا النُّور الذي أُنزل معه ،

فكانوا همُ المفلحين ، وكانت فرحة السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين أعظم وأظهر .

* وهـاهـو ذا النَّصـرُ يحفُّهـم وهـم يكنفـون راحلـة رسول الله ﷺ ، وهو فوقها متواضعاً خاشعاً لله على ما أسداهُ إليه من نعمةِ الفتح العُظمى .

* وكان من أعظم مواقف الشُّكر لله تعالى في هذا المقامِ الحافلِ بالنِّعم الكثيرةِ ، ونفحاتِ العطايا الرَّبّانيّة ، موقفُه ﷺ في المغفرة ، وفي الامتنان بإطلاق بعض مشركي قريش ، بعد أن صاروا أُسارى في يده ﷺ وأيدي أصحابه ، وهم يظنُّون كلَّ الظنِّ ألا حياة لهم بعد لحظات ، وأنهم سيؤخذون بذنوبهم وجرائرهم ، وقد نشف الدم في عروقهم ، واصفرَّت جلودهم من شدَّة ما كانوا فيه من الخوف الهالع ، والرُّعب المفزع ، وذلك خشية أن يقضيَ فيهم رسول الله ﷺ بما يستحقـونـه ، أو يسِمَهُـم بمَيْسـمِ الـذُّلِّ الأبـدي والهـوان السَّرمدي ، فيجعلهم عبيداً وخَولاً ، يتقاسمهم جند الجهاد الفاتحين .

* ولكنَّ المغفرة والرَّحمة النَّبويّة كانت لهم الدواء الشّافي ، فرحمهم ﷺ ، ورقَّ لهم ، ووقف منهم موقف الشُّكر لله ، وهو يهديهم نفحات المغفرة ويقول لهم : « ما تظنُّون أنّي فاعلٌ بكم » ؟

قالوا : خيراً ؛ أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ ، وقد قدرت .

فقال ﷺ : « إنّي أقولُ لكم كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] ، اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » .

* فخرجوا من المسجد سِراعاً فرحين بالمغفرة المحمَّديّة ، وبهذا العفو الكريم ، والصَّفح الجميل الذي لم يعرفه التاريخ ، ولا عرف مثله في النُّبل والإحسان ومكارم الأخلاق .

* لقد كانت المغفرةُ التّاج الذي ألْبَسَهُ رسول الله ﷺ معظم أولئك الذين فتح الله على قلوبهم يوم الفتح ، فأسْلَموا واستسلموا لله ، وكانوا من جُند الإسلام ، ومن قادة الدُّنيا ، وعباقرة الدَّهر ؛ ولله درُّ أبي محمد الشُّقْراطيسي ، إذ أجادَ في

هذا الموقف فقال من قصيدةٍ لاميَّةٍ رائعةٍ مخاطباً رسول الله ﷺ الذي عفا وصفَحَ وغَفَرَ :

فَجُدْتَ عفواً بفَضْلِ العفوِ منكَ ولم
تلمـم ولا بـأليـمِ اللـوم والعـذلِ
أضربتَ بالصَّفحِ صفحاً عن طوائلهم
طـولاً أطالَ مقيـلَ النَّـومِ فـي المُقَـلِ
رحمـتَ واشـجَ أرحـامٍ أُتيـحَ لهـا
تحت الوشيجِ نشيجَ الرَّوعِ والوَجَلِ
عـاذوا بظـلٍّ كـريـمِ العفـوِ ذي لُطفٍ
مبـاركِ الـوجـهِ بـالتَّـوفيـقِ مشتمـلِ
أزكـى الخليقـةِ أخـلاقـاً وأطهـرهـا
وأكرمُ النّاسِ صَفْحاً عن ذوي الزَّلَلِ

* * *

الفصلُ الثّاني

استغفارُ أبي سُفْيانَ وفضالَةَ بن عُمَيْر

* في يوم فتح مكة ، كان لرسول الله ﷺ مواقفُ فرديّةٌ في ميدان المغفرة مع بعض الأفراد الذين دانت لهم قريش بزعامتها ، وكان الشَّيطان قد اتَّخذهم مطايا لخبائثه وجرائره ، من مثل أبي سفيان بن حرب ، إذ يوحي إليه الشَّيطانُ وهو آخذٌ بمقوده أكثر من مرَّةٍ أن يجمعَ لمقاتلة رسول الله ﷺ ، فيخبرُه النَّبي ﷺ بما حدَّثَ به نفسَهُ ، وقال له : « إذاً يُخزيكَ الله » فيعفو عنه رسول الله ﷺ ويغفرُ زلَّته ويتركه ، فلا يؤاخذه شكراً لله العزيز الغفّار .

* روى ابنُ سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أنَّ رسول الله ﷺ خرج من الكعبة وأبو سفيان بن حرب جالس في

المسجد ، فقال أبو سفيان في نفسه : ما أدري بم يغلبُنا محمد ؟

فأتاه ﷺ فضربَ صدرَه وقال له : « بالله نغلبك » .

فقال أبو سفيان : أشهدُ أنَّكَ رسول الله .

* وروى الحاكمُ وتلميذُه البيهقي عن ابنِ عبّاسٍ ، وابن سعد عن أبي إسحاق السَّبيعي قالوا : رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والنّاسُ يطؤون على عقبه ، فقال : لو عاودتُ هذا الرجل القتال ؟ وجمعتُ له جمعاً ، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضربَ في صدره فقال : « إذاً يخزيك الله » ، فقال أبو سفيان : أتوبُ إلى الله وأستغفره ما أيقنتُ أنَّكَ نبيٌّ إلاَّ السّاعة ، إنِّي كنتُ لأحدِّثُ نفسي بذلك .

* وبالاستغفار تخلّى الشَّيطانُ عن أبي سفيان الذي حَسُنَ إسلامه ، وأضحى من جنود الإسلام ، رضي الله عنه وأرضاه .

* وأمّا قصَّةُ فضالة بن عمير بن الملوح ، وهمِّه

برسول الله ﷺ ليغدرَ به ، وفَضْحِ اللهِ له ، فمشهورة في عالم السّيرة ، حيثُ توَّجَ رسول الله ﷺ ذلك بأن طلبَ من فُضالةَ أن يستغفر الله ، فكيف كان ذلك ؟

* ذكرَ ابنُ هشام في « سيرته » ، والقسطلاني في « مواهبه » ، وابن كثير في « بدايته » ، وابن عبد البرّ في « دُرَره » أنَّ فضالة بن عميرِ بن الملوح همَّ بقَتْلِ رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت ، فلمّا دنا منه قال له ﷺ : « أفضالة » ؟

قال : نعم ، فضالة يارسول الله .

قال له النَّبي ﷺ : « ماذا كنتَ تُحدِّثُ به نفسك » ؟

قال : لا شيء ، كنتُ أذكرُ الله ، فضحكَ رسول الله ﷺ ثمّ قال له : « استَغْفِرِ اللهَ ممّا حدَّثتَ به نفسك » ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : واللهِ ما رفعَ يده عن صدري حتى ما خلقَ الله شيئاً أحبَّ إليَّ منه .

* وهكذا كان الاستغفارُ أيضاً سبباً لنجاةِ فضالة الذي أرادَ اللهُ به خيراً ، فأضحى في عِقْدِ فرسان المدرسة المحمديّة .

* وهاتان القِصَّتان تشيران إلى مكرمةٍ من مكارم رسول الله ﷺ في المغفرة ، والتي جمعتْ من صور التّربية السُّلوكيّة والرَّحمة ما لم يُعرف في إطار المكارم والفضائل الإنسانيّة إلا له ﷺ .

* * *

الفصل الثّالث

« غَفَرَ اللهُ لكَ »

* شيبةُ بنُ عثمان الحجبي أحدُ الصّحابة الذي ألقى اللهُ نورَ الإيمان في قلوبهم يومَ الفتح ، لكنّ شيبة لم تخلص نفسه من بعض الشّوائب ، وأضمر لرسول الله ﷺ الغدر وهو خارجٌ إلى غزوة هوازن بحُنَيْن ، ولكنَّ أنوارَ المغفرة غمرَتْ قلبَ شيبة فغدا من الأبرار ، فكيف كان ذلك ؟

* شيبةُ بن عثمان رضي الله عنه يزوِّدنا بهذا الخبر ، ويروي كيف طلب من النَّبي ﷺ أن يستغفرَ له ، فدعا له بالمغفرة ، يقول شيبة : لما كان عام الفتح ، دخل رسول الله ﷺ مكّة عنوةً ، قلتُ : أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحُنَين ، فعسى إن اختلطوا أن أُصيبَ من محمَّدٍ غِرَّة ، فأثأر

منه ، فأكون أنا الذي قمتُ بثأر قريش كلِّها ، وأقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحدٌ إلا اتَّبعَ محمداً ما تبعتُه أبداً ، وكنتُ مُرْصداً لما خرجتُ له ، لا يزدادُ الأمرُ في نفسي إلا قوَّةً .

* فلمّا اختلطَ النّاسُ ، اقتحمَ رسول الله ﷺ عن بغلته ، فأصلت السَّيفَ ، فدنوتُ أريدُ ما أريدُ منه ، ورفعتُ سيفي حتّى كدتُ أشعره إيّاه ، فرُفِعَ لي شواظٌ من نار كالبرق كاد يمحشني فناداني : « يا شيب ادنُ منّي » ؛ فدنوتُ منه ، فمسحَ صدري ، ثم قال : « اللهمَّ أعِذْهُ من الشَّيطان » .

قال : فوالله لهو كان ساعتئذٍ أحبَّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي ، وأذهبَ اللهُ ما كان في نفسي ، ثمَّ قال : « ادنُ فقاتل » ، فتقدَّمتُ أمامَه أضربُ بسيفي ، اللهُ يعلمُ أنِّي أُحبُّ أن أقيه بنفسي كلَّ شيء ، ولو لقيتُ تلك السَّاعة أبي لو كان حيًّا لأوقعتُ به السَّيف ، فجعلتُ ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون ، فكرُّوا كرَّةَ رجلٍ واحدٍ ، وقُرِّبَتْ بغلةُ رسول الله ﷺ فاستوى عليها ، وخرج في أثرهم حتى تفرَّقوا

في كلِّ وجه ، ورجع إلى معسكره ، فدخل خباءَه ، فدخلتُ عليه ، ما دخل عليه أحدٌ غيري حُبًّا لرؤية وجهه ، وسروراً به ، فقال : « يا شيب! الذي أرادَ اللهُ بك خيراً ممّا أردتَ لنفسك » . ثم حدَّثني بكلِّ ما أضمرتُ في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قطّ ، فقلتُ : فإنّي أشهدُ أن لا إله إلاّ الله ، وأنَّكَ رسول الله ، ثمّ قلتُ : استَغْفِرْ لي ؛ فقال : « غَفَرَ اللهُ لكَ »[1] .

* وهذه إحدى معجزات النُّبوَّة وآيات الرِّسالة ، حيث أخبر ﷺ شيبة بن عثمان بما أضمرَ في نفسه ، ثمّ دعا له بالمغفرة .

* * *

(١) انظر : زاد المعاد (٣/ ٤٧٠ و ٤٧١) عن ابن سعد ، وانظر الإصابة ترجمة رقم (٣٩٤٠) ، وانظر : سُبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٥/ ٤٧٣ و ٤٧٤) .

الفصل الرّابع

أُمُّ حُذيفة بن اليمان
وطلبها الاستغفار من النَّبي ﷺ

* الرَّبابُ بنتُ كعب الأشهليّة الأنصاريّة والدةُ حذيفة بن اليمان ، إحدى الصَّحابيّات اللّواتي بايعن رسول الله ﷺ ، وكان لها موقفٌ مذكورٌ في مجالِ الاستغفار ، إذ طلبتْ من ابنها حذيفة رضي الله عنهما أن يذهبَ إلى الحبيب الأعظم رسول الله ﷺ كيما يستغفرَ لها ولابنها ، تُرى ماذا فعل حذيفة ؟

* لنترك الحديث الآن لحذيفة حيث يروي لنا ذلك الحدث السَّعيد قال :

قالت لي أمّي : متى عهدُكَ بالنَّبي ﷺ ؟!

قلتُ : ما لي به عهدٌ منذ كذا وكذا ؛ فنالت منّي .

فقلتُ لها : دعيني ، فإنّي آتيه فأصلّي معه المغرب ، فأسأله أن يستغفرَ لي ولك .

فأتيتُه وهو يُصلّي المغرب ، فصلّى حتى صلّى العشاء ، ثم انصرفَ وخرجَ من المسجد ، فسمعتُ تعرُّضَ عارضٍ له في الطريق ، فتأخَّرتُ ثم دنوتُ ، فسمع نقيضي[1] من خلفه ، فقال : « مَنْ هذا » ؟

قلتُ : حذيفة .

قال : « ما جاءَ بك يا حُذيفة » ؟

فأخبرتُه ، فقال : « غفرَ اللهُ لكَ ولأُمِّكَ يا حُذيفة ، أما رأيتَ العارضَ الذي عرض » ؟

قلتُ : بلى .

---

(١) « نقيضي » : النقيض : الصوت ؛ والمعنى سمع صوت خطواتي .

قال : « ذلك مَلَكٌ لم يهبط إلى الأرض قَبْلَ السَّاعة ، فاستأذنَ اللهَ في السَّلامِ عليَّ ، وبشَّرني بأنَّ الحَسنَ والحُسَين سيِّدا شباب أهل الجنّة ، وأنَّ فاطمة سيِّدةُ نساءِ أهلِ الجنّة »[1] .

* * *

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ١٩٠) وإسناده حسن ؛ وأخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٧٨٣) وقال الترمذي : حسن غريب .

الباب السابع

المغفرة في الحديث النبوي
بين العظة والعبرة

الفصل الأول : « إنَّ اللهَ قد غَفَرَ للكِفْلِ » .

الفصل الثَّاني : « غَفَرْتُ لعبدي » .

الفصلُ الأوّلُ

« إنَّ اللهَ قد غَفَرَ للكِفْلِ »

* قصصُ المغفرةِ تزخرُ بها الأحاديث النَّبويّة الشَّريفةُ ، ومن روائعِ القصص النَّبويّ في المغفرة ، ما أخرجه الترمذي بسنده عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر ، قال : سمعتُ النَّبي ﷺ يُحدِّثُ حديثاً لو لم أسمعه إلاّ مرَّةً ، أو مرَّتَين حتى عدَّ سبع مرَّاتٍ ، ولكنّي سمعتُه أكثر من ذلك ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يتورَّعُ من ذنب عمله ، فأتته امرأةٌ ، فأعطاها ستّين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعدَ منها مقعد الرَّجل من امرأته ، أُرْعدتْ وبكت ، فقال : ما يُبكيكِ ؟! أأكرهتُكِ ؟

قالت : لا ، ولكنّه عملٌ ما عملتُه قطّ ، وما حملني عليه إلا الحاجة .

فقال : تفعلين أنتِ هذا وما فعلتِهِ ؟! اذهبي فهي لكِ .

وقال : لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً .

فمات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه : إنَّ اللهَ قد غَفَرَ للكِفْل[1] .

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٩٦) ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣) ، وابن حبّان برقم (٣٨٧) .

و « الكفل » : رجلٌ كان مسرفاً على نفسه منحرفاً عن الجادة ، فتاب الله عليه .

« لا يتورّع » : لا يمتنع ولا يحترز .

« الوطء » : الجماع .

« أرعدت » : مبني للمجهول ، من الإرعاد : أي اضطربت وزلزلت من خشية الله .

« أكرهتك » : أي : أأرغمتُكِ وحملتُكِ على هذا الفعل كرهاً .

« أصبح » : دخل في وقت الصبح .

* ولعلّنا نقتبسُ من هذا الحديث بعض الأقباس النُّورانيّة في مجال المغفرة ، حيثُ إنَّ رحمةَ الله عزَّ وجلَّ تسعُ كلَّ شيءٍ ، ولعلَّ أوَّلَ بوادر المغفرة التي يُطالعنا بها هذا الحديث الشَّريف بضع نقاط منها :

● إنَّ إقلاع الإنسان عن الذُّنوب ـ عند مقدرته عليها ـ قد تُرجى له المغفرة بذلك من الذُّنوب السَّالفة .

● ومنها أنَّ من اعتاد على اقترافِ الآثام العظام لا يُظنُّ أنّه قد حيلَ بينه وبين المغفرة ، وعندئذ يستمرُّ في إتيان الذُّنوب ، بل إنَّ الإقلاع عنها أحسن عاقبة ، وأجمل مآباً ، فباب المغفرة مفتوح لمن أراد أن يصل حَبْلَهُ بغفران الله عزَّ وجلَّ .

● ولعلَّ من أجمل ما نستفيده من الحديث أنَّ الخوف من الله عزَّ وجلَّ ذو بركاتٍ تترى ، ومنها حصول المغفرة للكفل ، وكذلك أكرم الله المرأة بالحفاظ على كرامتها وعِفَّتها .

● ومن الفوائد الجمَّةِ المستفادة من هذا الحديث الشَّريف ، المغفرة التي كُتِبَتْ على باب الكِفْل لمّا مات بأنَّه

مغفور له ، ولعلَّه كان شائعاً في بني إسرائيل ـ آنذاك ـ ظهور الكرامات والآيات للأفراد والعامّة منهم .

● إنَّ مغفرة الله كالغيثِ الهاطلِ ، يتلقّى منه النَّاسُ على مقادير أدعيتهم وتعرُّضهم له ، فمَنْ يحجب نفسَه عنه باختياره ، إذ يقوم بأعمالٍ أو أسبابٍ تحجبه عنه ، فإنَّه سيظلُّ محجوباً ، ومن خيراته محروماً .

● أمّا مَنْ تعرَّضَ لفيوضات رحماتِ اللهِ ومغفرته ، فإنّه يصيبُ منها لا محالة على مقدار تعرُّضه ، فإذا قدَّم إيماناً صادقاً ، وعزماً أكيداً على طلب المغفرة ، فتح بذلك على نفسه باب غفران من مغفرة الله ، فسكبَ عليه فيوضاً جبَّتْ عنه ما كان منه من عصيان ، وأعدَّته للخلود في نعيم الجِنان .

* * *

الفصل الثّاني

« غَفَرْتُ لعبدي »

* في الحديث الذي سنعرضه فوائد كثيرة ، تشيرُ إلى عظيم فائدة الاستغفار ، كما تشيرُ إلى مكانةِ المغفرة في عظيم فَضْلِ الله ، وفي سعَةِ رحمته وكرمه .

* فقد جاء في البخاري بسندٍ إلى عبد الرحمن بن أبي عميرة قال : سمعتُ أبا هريرة قال : سمعتُ النَّبي ﷺ قال : « إنَّ عبداً أصاب ذنباً فقال : ربِّ أذنبتُ فاغفرْ لي . فقال ربُّه : أَعَلِمَ عبدي أنَّ له ربًّا يغفرُ الذَّنبَ ويأخذُ به ؟ غفرتُ لعبدي .

ثمَّ مكثَ ما شاء الله ثم أصابَ ذنباً ، قال : ربِّ أصبتُ آخر ، فاغفره لي .

فقال : أعَلِمَ عبدي أنَّ له ربًّا يغفرُ الذَّنب ويأخذُ به ، غفرتُ لعبدي ثلاثاً ، فليعمل ما شاء »[1] .

* إنَّنا نلمحُ في هذا الحديث لواءَ المغفرةِ يلوحُ عن كثب ، ويرفرف فوق رؤوس المستغفرين ، فالاستغفار الذي يثبت في القلب ويقترنُ باللّسان ، ينحلُّ به عقد الإصرار ، ولكن مَنْ قال : أستغفرُ الله ، وقلبُه مصرٌّ على المعصية ، فهذا الذي استغفاره يحتاجُ إلى استغفار ـ كما نُسب ذلك لرابعة العدويّة ـ .

* إنَّ معاودةَ الاستغفار أفضلُ من التّمادي في المعصية ، لأنَّ الطَّلبَ من الكريم ، والإلحاحَ في سؤاله ، والاعتراف بأنّه لا غافرَ للذَّنب سواه ، دليلٌ على فَضْلِ المغفرة ، وهذا من

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٥٠٧) ، ومسلم في التّوبة برقم (٢٧٥٨) ، وأحمد (٢/ ٤٠٥ و ٤٩٢) . ومعنى « يأخذ به » : أي يعاقب عليه .

« فليعمل ما شاء » : أي مادام يذنب ثم يتوب ، فإن المغفرة تناله .

أجَلُّ نِعَمِ الإله على عباده الذين سلكوا هذا الطّريق الميمون .

* إنَّ من فوائد هذا الحديث الشَّريف أنَّ الله يغفرُ للمرء مادام يطلبُ المغفرة ، وإن واقَعَ ووقعَ في الذُّنوب بعد ذلك ، وذلك لأنَّه لا يغفرُ الذُّنوب إلا اللهُ تعالى ، فهو غافرُ الذَّنبِ وقابلُ التَّوبِ .

* قال النَّووي ـ رحمه الله ـ : إنَّ الذُّنوب ولو تكرَّرت مئة مرَّةٍ ، بل ألفاً وأكثر ، وتابَ في كلِّ مرَّةٍ ، قُبِلَتْ توبتُه ، أو تابَ عن الجميع توبةً واحدةً صحَّتْ توبتُه .

* وهذه التَّوبةُ تكونُ بكثرةِ الاستغفار المصحوبِ بالنَّدمِ والإقلاعِ عن الذُّنوب ، وعندها تؤتي المغفرةُ ثمارها ، ويُكتبُ العبدُ المستغفرُ في ديوانِ المستغفرين ، والمغفورِ لهم بإذن الله وفضله .

* * *

الباب الثامن

من نفحات المغفرة وأسبابها

الفصل الأوَّل : محاسنُ الاستغفار ومكارمُ المغفرة .

الفصلُ الثَّاني : أسبابُ المغفرة .

الفصل الثَّالث : خطأٌ في فَهْم الاستغفار .

الفصلُ الأوّلُ

محاسِنُ الاستغفارِ ومكارِمُ المغفرةِ

* لعلَّ سلامةَ القلبِ من الشِّركِ سببٌ من أسبابِ النَّجاة ، ولعلَّ الاستغفار بقلبٍ منيبٍ من أسباب السَّعادة الأبديّة أيضاً ، إذ أنَّ المغفرة تنتظرُ هذا الصِّنْفَ من المُنيبين الذين يرجون رحمة الله وغفرانه .

* ويؤيِّدُ هذا ما أخرجه الإمام أحمد من رواية أخشن السَّدوسي ، قال : دخلتُ على أنسٍ فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده ، لو أخطأتُم حتى تملأ خطاياكم ما بين السَّماء والأرض ، ثم استغفرتم اللهَ لغفر لكم »[1] .

---

(١) انظر المسند (٣/ ٢٣٨) ، ورواه أبو يعلى برقم (٤٢٢٦) ؛ =

* لكنَّ محاسنَ الاستغفار ، ومكارمَ المغفرة ، تظهرُ أمامنا جليَّةً في قول الحبيب الأعظم محمد رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا بن آدم ، إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ، ولا أُبالي ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السَّماء ، ثم استغفرتني غفرتُ لك ، يا بن آدم إنَّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة »[1] .

* إنَّ القراءة المتأنية لهذا الحديث الشَّريف ، تجعلنا نتطرَّقُ إلى الأسباب التي تحصلُ بها المغفرة ، تُرى ما الأسباب لذلك ؟ هذا ما نقرأه في الفصل التالي بمشيئة الله سبحانه .

= وانظر مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٥) ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات .

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) ، وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

الفصلُ الثّاني

أسبابُ المغفرة

السبب الأوَّل للمغفرة : الدُّعاء مع الرَّجاء ، فإنَّ الدُّعاء مأمور به ، وموعودٌ عليه بالإجابة ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] ، ومن أعظم شرائط الدُّعاء : حضور القلب ، ورجاء الإجابة من الله عزَّ وجلَّ ، ولذلك نُهي العبد أن يقول في دعائه : « اللهمَّ اغفر إن شئتَ ، ولكن ليعزم المسألة ، فإنَّ الله لا مُكره له »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة (٢/ ٢٤٣) ، والبخاري برقم (٦٣٣٩) ، ومسلم برقم (٢٦٧٩) ، وأخرجه البخاري أيضاً من حديث أنس برقم (٦٣٣٨) ، ومسلم برقم (٢٦٧٨) .

* ونُهي العبدُ أن يستعجل ، ويترك الدُّعاء لاستبطاء الإجابة ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ الملحِّين في الدُّعاء .

* ومن أهمِّ ما يسألُ العبدُ ربَّه مغفرة ذنوبه ، أو ما يستلزمُ ذلك ، كالنَّجاة من النّار ودخوله الجنّة .

* ومن رحمة الله بعبده أنَّ العبد يدعوه بحاجةٍ من الدُّنيا ، فيصرفها عنه ، ويعوِّضه خيراً منها ، فإمّا أن يغفرَ له بها ذنباً ، أو يصرفَ عنه بذلك سوءاً ، أو أن يدَّخرها له في الآخرة .

* وعلى كلٍّ حال ، فالإلحاحُ بالدُّعاء بالمغفرة مع رجاء الله عزَّ وجلَّ موجبٌ للمغفرة ، فاللهُ تعالى يقولُ في الحديث القُدسي : « أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاء » .

* ومن أعظمِ أسبابِ المغفرةِ أنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً لم يرجُ مغفرته من غير ربِّه ، ويعلمُ أنَّه لا يغفرُ الذُّنوب ويأخذُه بها غيرُه ، لأنَّ العباد يقعون في الخطأ ، واللهُ هو الغفَّار لذنوبهم ، ففي حديث أبي ذرّ الطّويل عن النَّبي ﷺ ، فيما يروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنّه قال :

« يا عبادي ، إنّكم تخطئون بالليل والنّهار ، وأنا أغفر الذُّنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم »[1] .

* فالاستغفارُ من الذُّنوب هو طلبُ المغفرة ، والعبادُ أحوجُ شيء إلى ذلك ، لأنّهم يخطئون بالليل والنّهار ، ولكنّهم يرجون غفرانَ الله ، فليس لهم إلا هو :

أسأتُ ولم أُحْسِنْ وجئتُكَ تائباً ... وأنّى لعبدٍ عن مواليه مهربُ
يؤمِّلُ غفراناً فإنْ خابَ ظنُّهُ ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيَبُ

* إنَّ ذنوبَ العباد وإن عَظُمَتْ ، فإنَّ عفو الله ومغفرته أعظمُ منها وأعظم ، فهي صغيرةٌ في جنب عفو الله ومغفرته ، وفي هذا المعنى يقول الحسن بن هانىء أبو نوّاس :

يا كبيرَ الذَّنْبِ عفو اللـ ... ـه من ذَنْبِكَ أكبرُ
أعظمُ الأشياءِ في ... جنبِ عفوِ اللهِ يصغرُ

---

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧) ، وأحمد (٥/ ١٥٤ و ١٦٠ و ١٧٧) ، والترمذي برقم (٢٤٩٥) ، وابن ماجه برقم (٤٢٥٧) .

السَّببُ الثَّاني للمغفرة : الاستغفار ، ولو عظمُت الذُّنوب ، وبلغت عنانَ السَّماء ، وقد كثُرَ ذِكْرُ الاستغفار في القرآن الكريم ؛ فتارةً يأمرُ به كقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٩٩] ، وتارةً يمدحُ أهله كقوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] ، وكقوله : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] ، وتارةً يذكر أنَّ الله يغفر لمن استغفره ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[النساء : ١١٠] .

* وكثيراً ما يقرنُ الاستغفارُ بذكر التّوبة ، فيكونُ الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان ، والتّوبة عبارة عن الإقلاع عن الذُّنوب بالقلوب والجوارح .

* وتارةً يفردُ الاستغفار ، ويرتب عليه المغفرة ، ومجرّد قول القائل : اللهمَّ اغفر لي ، فإنّه طلبٌ منه عزَّ وجلَّ للمغفرة ودعاءٌ بها ، فيكون حكمهُ حكمَ سائرِ الدُّعاء ، فإن شاءَ اللهُ أجابَه ، وغفرَ لصاحبه ، لاسيّما إذا خرجَ من قلبٍ منكسرٍ

بالذَّنب ، أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصّلوات .

* وأمّا استغفارُ اللِّسان مع إصرارِ القلبِ على الذَّنب ، فهو دعاء مجرّد ؛ إن شاء اللهُ أجابه ، وإن شاءَ ردَّه . وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة ، إذ الإصرارُ وخيمُ العاقبةِ .

* وأفضلُ الاستغفار ما اقترنَ به ترك الإصرار ، وهو حينئذٍ توبةٌ نصوحٌ ، ومن المستحسن أن يقولَ العبد : اللهمَّ إنّي أستغفركَ فتُبْ عليَّ .

* وأفضلُ أنواعِ الاستغفار أن يبدأ العبدُ بالثَّناءِ على ربِّه ، ثمَّ يُثني بالاعترافِ بذنبه ، ثم يسألُ اللهَ المغفرة ، ففي الصَّحيحين عن عبد الله بن عمرو ، أنَّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال : يارسول الله ، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي ، قال : « قل : اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلاَّ أنتَ ، فاغفر لي مغفرةً من عندك ، وارحمني إنَّك أنتَ الغفور الرَّحيم »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٣٤) ، ومسلم برقم (٢٧٠٥) ، =

* ولعلَّ من محاسنِ الاستغفار أنَّ من زادَ اهتمامه بذنوبه ، ربّما تعلَّقَ بأذيالِ مَنْ قلَّتْ ذنوبه ، والتمسَ منه الاستغفار ، فقد وردَ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانَ يطلبُ من الصِّبيان الاستغفار ، ويقول : إنَّكم لم تذنبوا .

* وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقولُ لغِلْمانِ الكتّاب : قولوا اللهمَّ اغفر لأبي هريرة ، فيؤمِّنُ على دعائهم .

السَّببُ الثَّالث للمغفرة : التَّوحيد ؛ وهو السَّبب الأعظم ، فمَنْ فقدَهُ فقَدَ المغفرة ، ومَنْ جاءَ به ، فقد أتى بأعظمِ أسباب المغفرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ؛ فمَنْ جاءَ مع التّوحيد بقراب الأرض خطايا ، لقيه الله بقرابها مغفرةً ، لكن هذا مع مشيئة الله عزَّ وجلَّ ، فإن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه

= وأحمد (١/ ٤ و ٧) ، والترمذي برقم (٣٥٣١) ، والنّسائي (٣/ ٥٣) ، وابن ماجه برقم (٣٨٣٥) .

بذنوبه ، ثم كان عاقبته ألا يُخلَّدَ في النّار ، بل يخرج منها ، ثم يدخلُ الجنّة .

* فمن تحقَّقَ بكلمةِ التَّوحيد قلبُه ، مُحِيَتْ خطاياه ، وربّما قلبتها حسناتٍ بمشيئة الله ، فإنَّ هذا التّوحيد هو حبلُ النّجاة ، إذ الاعترافُ والإقرارُ بوحدانيّة الله من أسبابِ المغفرة .

* أخرج الإمام أحمد عن شدّاد بن أوس ، وعبادة بن الصّامت أنَّ النّبي ﷺ قال لأصحابه :

« ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله » ، فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ثم قال :

« الحمدُ لله ، اللهمَّ بعثتني بهذه الكلمة ، وأمرتني بها ، ووعدتني الجنّة عليها ، وإنّك لا تُخلفُ الميعاد » ؛ ثم قال : « أبشروا فإنَّ اللهَ قد غَفَرَ لكم »[1] .

* إذاً ، فبالتوحيد خلعَ اللهُ عليهم خِلَعَ الغفران ، فكانت خيرَ القِسَمِ ، فما أجملها من خِلْعَة!!

---

(١) المسند (٢/ ١٢٤) .

الفصلُ الثّالثُ

خطأٌ في فهمِ الاستغفار

* يظنُّ كثيرٌ من النّاسِ ، وكثيرٌ من الذين يقرؤون ويطالعون الكتب والمصادر ، أنَّهم لو فعلوا ما فعلوا ثم قالوا : نستغفرُ الله ، زالَ الذَّنْبُ ، وراحَ هذا بهذا ، ولم يَعُدْ هنالك أثرٌ للذَّنب .

* وهـذا فهـمٌ خـاطـئٌ لا يستقيـمُ مـع معنـى وجـوهـر الاستغفار ، وقد تعرَّضَ ابنُ قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ إلى هذه الفكرة ، وذكر بعض قصص المواقف الخاطئة في فهم الاستغفار ، فقال : قال لي رجلٌ من المنتسبين إلى الفقه : أنا أفعلُ ما أفعلُ ، ثمَّ أقولُ : سبحان الله وبحمدِه مئة مرّة ، وقد غُفِرَ ذلك أجمعُه ؛ كما صحَّ عن النَّبي ﷺ أنّه قال : « مَنْ قال

في يوم : سبحان الله وبحمده مئة مرّة حُطَّتْ عنه خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر »[1] .

* وقال لي آخر من أهل مكّة : نحنُ إذا فعلَ أحدُنا ما فعل ، اغتسلَ وطافَ بالبيتِ أسبوعاً ، وقد مُحي عنه ذلك .

* وقال لي آخر : قد صحَّ عن النَّبي ﷺ أنّه قال : « أذنبَ عبدٌ ذنباً فقال : أي ربِّ أصبتُ ذنباً فاغفر لي ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : أي ربِّ ، أصبتُ ذنباً فاغفر لي ، فقال الله عزَّ وجلَّ : عَلِمَ عبدي أنَّ له ربًّا يغفرُ الذَّنْبَ ويأخذُ به ، قد غفرتُ لعبدي ، فليصنع ما شاء »[2] . قال : وأنا لا أشكُّ أنَّ لي ربًّا يغفرُ الذَّنْبَ ويأخذُ به .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات برقم (٦٠٤٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء برقم (٢٦٩١) ، وابن ماجه في الأدب برقم (٣٨١٢) ، وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٢ و ٥١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٠٦٨) ، ومسلم في التوبة برقم (٢٧٥٨) ، وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٦) .

* وهذا الضَّربُ من النّاسِ قد تعلَّقَ بنصوصٍ من الرَّجاء ، واتَّكلَ عليها ، وتعلَّق بها بكلتا يديه ، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها ، سردَ لك ما يحفظهُ من سعة رحمة الله ومغفرته ، ونصوص الرَّجاء .

* وللجُهَّال من هذا الضَّرب من النَّاس في هذا الباب غرائب وعجائب ، كقول بعضهم :

وكَثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا إذا كان القدومُ على كريمِ

* وقول الآخر : التَّنزُّه من الذُّنوب ، جهلٌ بسعةِ عفو الله . وقول الآخر : تركُ الذُّنوبِ جرأة على مغفرة الله واستصغار لها[1] .

* والحقيقةُ ، إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إنَّما يكونُ مع انعقادِ أسباب النَّجاة[2] . وأمّا مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّى إحسانُ

---

(١) انظر : الداء والدواء (ص ٤٤ و ٤٥) . بتحقيق : يوسف بديوي ، دار ابن كثير ، دمشق ط ١ ١٩٩٥ م .

(٢) اقرأ كتابنا « النجاة » دار اليمامة ، ط ١ ١٩٩٨ م ، دمشق .

الظَّـنِّ ، وبـالتـالـي لا يفيـدُ الاستغفـار كمـا يظـنُّ أولئـك المخطئون ، لأنَّ كثيراً من الجُهَّال اعتمدوا على رحمة الله وعفوهِ وكرمهِ ، وضيَّعوا أمره ونهيه ، ونسوا أنَّه شديد العقاب ، ومَنِ اعتمدَ على العفو مع الإصرار على الذَّنب ، فهو كالمعاند ، وكان من الخاسرين .

* وقال الحسنُ البصري ـ رحمه الله ـ يذمُّ هؤلاء وينعى عليهم طريقتهم : إنَّ قوماً ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتّى خرجوا من الدُّنيا بغير توبة يقول أحدهم : لأنّي أُحسِنُ الظَّنَّ بربي ؛ وكذب ، لو أحسنَ الظَّنَّ ؛ لأحسنَ العمل .

* * *

الباب التاسع

مفاهيم حول المغفرة

الفصلُ الأوَّل : الاستغفارُ والتَّوبة .

الفصلُ الثَّاني : الفرقُ بين تكفير السيِّئات وتكفير الذُّنوب .

الفصلُ الثَّالث : صلةُ المغفرةِ بفضائل المكارم .

الفصلُ الأوَّلُ

الاستغفارُ والتَّوبةُ

* هنالك بعضُ المفاهيم والآداب المهمّة التي يودُّ المؤمنُ معرفتها ، ومنها العلاقةُ بين التَّوبةِ والاستغفار ، وكيفيّة فهم المغفرة فهماً دقيقاً لا يختلطُ بمفهوم التَّوبة ، إذ لكلٍّ من المفهومَين معنًى ومغزى يختلفُ عن الآخر ، لذلك سنوضح ذلك في السُّطور التوالي :

فالاستغفار نوعان :

أ ـ استغفارٌ مفرد .

ب ـ واستغفارٌ مقرونٌ بالتَّوبة .

أ ـ فالاستغفار المفرد : كقول نبيِّ الله نوح ـ عليه السَّلام ـ لقومه : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠] .

وكقول نبيِّ الله صالح ـ عليه السَّلام ـ لقومه : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٩٩] .

وكقوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فهذا هو الاستغفار المفرد .

وأمّا الاستغفارُ المقرون : كقول نبيِّ الله هود ـ عليه السَّلام ـ لقومه : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود : ٥٢] ؛ وكقول نبيِّ الله صالح ـ عليه السَّلام ـ لقومه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] ؛ وقول نبيِّ الله شُعيب ـ عليه السَّلام ـ لقومه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] ؛ وكقوله تعالى : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود : ٣] .

* فالاستغفارُ المفردُ كالتَّوبة ، بل هو التَّوبةُ بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله ، وهو محو الذَّنب ، وإزالةُ أثره ، ووقاية شرِّه ، لا كما ظنَّه بعضُ النّاس أنّها السَّتْر ، فإن الله يسترُ على من يغفر له ، ومن لا يغفر له ، ولكنَّ السَّتر لازم مسمّاها أو جزؤه ؛ فدلالتها عليه إما بالتضمن ، وإمّا باللزوم ؛ وحقيقتها وقاية شرِّ الذَّنْب ، ومنه المِغْفَر : لما يقي الرأس من الأذى ، والسّتر لازم لهذا المعنى ، وإلا فالعمامةُ لا تسمّى مغفراً ، فلابدَّ في لفظِ المِغْفَر من الوقايةِ .

* وهذا الاستغفارُ هو الذي يمنعُ العذابَ في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فإنَّ الله لا يعذِّبُ مستغفراً ؛ وأمّا مَنْ أصرَّ على الذَّنبِ وطلبَ من الله مغفرته ، فهذا ليس باستغفار مطلق ، ولا يمنعُ العذاب ، فالاستغفارُ يتضمَّنُ التَّوبة ؛ والتَّوبةُ تتضمَّنُ الاستغفار ، وكلٌّ منهما يدخلُ في مسمَّى الآخر عند الإطلاق ، وأمّا عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار : طلبُ وقاية شرٍّ مضى .

والتَّوبة : الرُّجوعُ ، وطلب شرِّ ما يخافه في المستقبل من سيِّئات أعماله .

وهاهنا ذَنْبَان :

ذَنْبٌ قد مضى ؛ فالاستغفارُ منه طلبُ وقاية شرِّه وذَنْبٌ يُخافُ وقوعه ، فالتَّوبة العزم على ألا يفعله ، والرُّجوع إلى الله يتناولُ النَّوعَيْن : رجوعٌ إليه ليقيه شرَّ ما مضى ؛ ورجوعٌ إليه ليقيه شرَّ ما يستقبل من شرِّ نفسه ، وسيِّئات أعماله ؛ ولذلك خُصَّت التَّوبة بالرُّجوع ؛ وخصَّ الاستغفارُ بالمفارقة ، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ؛ ولهذا جاء الأمرُ بهما مرتباً بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود : ٥٢] ، فإنَّه الرُّجوعُ إلى طريقِ الحقِّ بعد مفارقةِ الباطل .

والاستغفارُ أيضاً من باب إزالة الضَّرر .

والتَّوبةُ طلبُ جَلْبِ المنفعة .

فالمغفرةُ أن يقيَهُ شرَّ الذَّنْبِ .

والتَّوبة : أن يحصلَ له بعد هذه الوقاية ما يحبُّه .

وكلٌّ منهما يستلزم الآخر عند إفراده .

الفصلُ الثّاني

الفرقُ بين تكفيرِ السيِّئاتِ ومغفرةِ الذُّنوبِ

* نحنُ الآنَ أمامَ الفرقِ بين تكفيرِ السيِّئاتِ ومغفرةِ الذُّنوب ، ولكي نُدركَ المعنى بوضوحٍ بين المفهومين ، علينا أن نقرأ ما جاء في ذلك من آياتٍ في القرآن الكريم ، وهنالك يتبيَّن لنا المعنى بجلاء ووضاءةٍ ؛ فقد جاء في القرآن الكريم ذِكْرُهما مقرنَيْن ، كما جاء كلٌّ منهما منفرداً عن الآخر .

* فالمقترنان : من مثلِ قولِ الله عزَّ وجلَّ حاكياً عن عباده المؤمنين : ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

* والمنفردُ من مثلِ قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد : ٢] ؛ وقوله في المغفرة : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد : ١٥] وكقوله : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران : ١٤٧] ، ومثله كثيرٌ في القرآن الكريم .

* ونجدُ هنا أربعة أمورٍ : ذنوب ، سيِّئات ، مغفرة ، تكفير .

فالذُّنوب : المرادُ بها الكبائر . والسيِّئات[1] : المرادُ بها الصَّغائر ، وهي ما تعملُ فيه الكفّارة من الخطأ وما جرى مجراه .

---

(١) إنَّ الدَّليلَ على أنَّ السيِّئات من الصَّغائر ، والتكفير لها هو قوله عز وجل : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] ؛ وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصَّلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ ورمضان إلى رمضان مكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنبَت الكبائرُ » .

والمغفرةُ : لفظٌ أكملُ من لفظ التكفير ، ولهذا كان مع الكبائر ؛ والتَّكفير مع الصَّغائر ؛ فإنَّ لفظَ المغفرة يتضمَّنُ الوقايةَ والحفظَ ، ولفظَ التكفير يتضمَّنُ السّتر والإزالة .

وعند الإفراد يدخلُ كلٌّ منهما في الآخر ؛ فقوله تعالى : ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [محمد : ٢] ، يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرِّها ، بل التّكفير المفرد يتناول أسوأَ الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ [الزمر : ٣٥] .

* وإذا فُهِمَ هذا ، فُهِمَ السِّرُّ في الوَعْدِ على المصائبِ والهمومِ والغمومِ ، والنَّصَبِ والوَصَبِ بالتَّكفير دون المغفرة من مثل قول رسول الله ﷺ ، فيما جاء في الحديث الصَّحيح : « ما يُصيبُ المؤمنُ من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذى حتّى الشَّوكةَ يُشاكها ؛ إلا كفَّرَ اللهُ بها من خطاياه » ؛ فإنَّ المصائبَ لا تستقلُّ بمغفرة الذُّنوب ، ولا تغفر الذُّنوب جميعها إلا بالتَّوبة ، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذُّنوب ، فهي كالبحر لا يتغيَّرُ بالجيف ، وإذا بلغ الماءُ قُلَّتَيْنِ لم يحمل الخبث .

* فلأهل الذُّنوب ثلاثةُ أنهارٍ عِظامٍ يتطهَّرون بها في الدُّنيا ، نهرُ التَّوبةِ النَّصوح ، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزارِ المحيطة بها ؛ ونهرُ المصائبِ العظيمةِ المكفِّرة .

فإذا أراد اللهُ بعبده خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثَّلاثة ، فورَدَ القيامة طيِّباً طاهراً بإذن الله[1] .

* * *

(١) انظر : مدارج السالكين (١/٣٣٨ و ٣٣٩) بشيء من التصرف .

الفصلُ الثّالثُ

صِلَةُ المغفرةِ بفضائلِ المكارمِ

* للمغفرة في القرآن الكريم صلاتٌ وشيجةٌ بين المكارم ، ولا يمكنُ لنا حصرها أو استقصاؤها ، ولكن يمكنُ الإشارةُ إلى بعض النَّفحات الكامنةِ في دُرَرِهِ الكثيرةِ التي لا تُحصى ولا تُعدُّ ، كالمسارعة إلى الخيرات ، والرَّحمة ، والجهاد ، والإيمان ، والإخلاص ، وما شابه ذلك .

* ونجدُ الرَّابط الوثيقَ بين المغفرةِ والإنفاق ، إذ إنّنا نجدُ في آياتٍ من القرآن العظيم أنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ يَعِدُ المغفرة وتعويض الإنفاق لمن يُحسنُ العلاقة مع الله .

* وفي فضيلةٍ أخرى نَجِدُ دعوةً رائعةً إلى المسارعةِ بطلب المغفرة ، لأنَّ حصيلةَ ذلك الجنّة ، أليس اللهُ قد قال :

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

* ومن الفضائل الكثيرة التي ارتبطت بالمغفرة : الرَّحمة التي جعلها اللهُ منوطةً بالمغفرة ، إذ إنَّ هاتين الفضيلتَيْن مخصوصتان للمجاهدين والمهاجرين : ﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء : ٩٦] .

* والإيمانُ له مساحةٌ لا تُحَدُّ في ميدانِ الفضائل ، وفي هذا نجدُ ارتباطاً وثيقاً بينه وبين المغفرة ، إذ جعلها اللهُ للخُلَّصِ من المؤمنين من عباده ، وكذلك فضيلةُ التَّقوى نجدُ بينها وبين المغفرة عُرًى وثيقة ، إذ اشترط اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

* وترتبطُ المغفرةُ بصلةٍ وثيقةٍ مع مكرمةِ الصَّبْرِ ، ومع عمل الصَّالحات ، وهنالك تكونُ المغفرةُ ، ويكون الأجرُ للذين صبروا وعملوا الصَّالحات ، ونلمحُ هذه الصِّلة في كثيرٍ من الآيات القرآنية ، ومنها قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود : ١١] .

* وهنالك صِلاتٌ وشيجةٌ بين المغفرةِ والرِّزقِ الكريم لمن آمنَ وعملَ الصَّالحات ، كما نجدُ صلةً بين المغفرة وبين المؤمنين الطيِّبين من الرِّجال والنِّساء ؛ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور : ٢٦] .

* ومن بوارقِ لوامعِ المغفرة ارتباطُها بفضيلة صلاحِ الأعمال ، والتَّقوى ، والقول السَّديد ، والإخلاص لله في العمل والقول ؛ بل إنَّ أرجى آيةٍ في القرآن الكريم في ميدان المغفرة هي قولُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [الزمر : ٥٣] .

---

(١) وجاء في السُّنَّة المطهَّرة عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ اللهُ له من كلِّ ضيقٍ مخرجاً ، ومن كلِّ همٍّ فَرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » . أخرجه أبو داود برقم (١٥١٨) ، وابن ماجه برقم (٣٨١٩) .

* وللمغفرةِ نصيبٌ وافرٌ في عَصْرِ الصَّحابة ، في عَصْرِ الخير والخيرية ، إذ أكرمهم اللهُ عزَّ وجلَّ بالمغفرة والأجر العظيم ، إذا ما غَضُّوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ ، فهم يخفضون أصواتهم ويخافتون بها أدباً مع رسول الله ﷺ ، وهذا ذروةٌ في الأدب العظيم الذي ربّى الله عليه هذا الجيل الفريد الذي اختاره ، ليكونَ خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للنّاس .

* هذا ومكرمةُ المغفرةِ مع أزاهرِ الفضائلِ بستانٌ أنيقٌ كبيرٌ ، لا يُستطاعُ الإحاطةُ بجماله ، ولكن يمكن الاستمتاعُ ببعضِ زهره الفوّاحِ المندّى بعبقاتِ الأنوار الرَّبانيّة التي تدني من الجنَّةِ .

* * *

الباب العاشر

من أنداء المغفرةِ وأنسامها

الفصلُ الأوَّلُ : من رقائقِ الأقوالِ في المغفرةِ والاستغفار .

الفصلُ الثَّاني : من نفحاتِ الأشعارِ في المغفرةِ .

الفصلُ الثَّالثُ : من أنسامِ الاستغفارِ في مناجاةِ الصَّالحين .

الفصلُ الأوّلُ

من رقائقِ الأقوالِ في المغفرةِ والاستغفارِ

* يروى عن لقمانَ أنَّه قال لابنه : يا بنيّ ، عوِّد لسانكَ : اللهمَّ اغفرْ لي ، فإنَّ للهِ ساعاتٌ لا يردُّ فيها سائلاً[1] .

* وقال الحسنُ البصري : أكثِروا من الاستغفارِ في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طرقكم ، وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم أينما كنتم ، فإنّكم ما تدرون متى تنزلُ المغفرةُ .

* وحكى مورِّق العجلي قصَّةً جميلةً عن أحدِ المستغفرين ، فقال : كان رجلٌ يعملُ السيِّئاتِ ، فخرجَ إلى

---

(١) لطائف المعارف (ص ٣٨٣) .

البريّة ، فجمع تُراباً ، فاضطجعَ عليه مُستلقياً ، فقال : ربِّ اغفرْ لي ذنوبي ، فقال : إنَّ هذا ليعرفُ أنَّ له ربًّا يغفر ويعذِّب ، فغفر له .

* وذكر أبو نُعيم قصَّةً جميلةً عن مغيث بن سُميّ قال : بينما رجلٌ خبيثٌ ، فتذكَّر يوماً فقال : اللهمَّ غفرانكَ ، اللهمَّ غفرانكَ ، اللهمَّ غفرانك ، ثم ماتَ فغُفِرَ له[1] .

* وقال بعضُ العارفين : مَنْ لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيحُ توبته ، فهو كاذبٌ في استغفاره .

* وكان بعضُهم يقولُ : استغفارنا هذا يحتاجُ إلى استغفارٍ كثيرٍ . وفي ذلك يقولُ بعضُ البُلغاء :

أستغفـرُ اللهَ مِـنْ أستغفـر الله ... من لفظةٍ بدرتْ خالفتُ معناها

وكيف أرجو إجابات الدُّعاء وقد ... سَدَدتُ بالذَّنبِ عندَ اللهِ مجراها

* وكان محمد بن سوقة يقولُ في استغفاره : أستغفرُ اللهَ

---

(١) حلية الأولياء (٦/٦٨) .

العظيمَ الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيُّومُ وأسألهُ توبةً نصوحاً .

* وروي عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال : بحسبِ المرءِ من الكذبِ أن يقولَ : أستغفرُ الله ثمَّ يعود .

* وسئلَ الأوزاعيُّ ـ رحمه الله ـ عن الاستغفار ؛ أيقولُ : أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيُّومُ وأتوبُ إليه ؛ فقال : إنَّ هذا لحَسَنٌ ، ولكن يقول : ربِّ اغفر لي ، حتى يتمَّ الاستغفار .

* قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : إنّي لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه كلَّ يومٍ ألفَ مرَّةٍ ، وذلك على قَدْرِ نيتي[1] .

* وقالت أُمُّنا عائشةُ بنتُ الصدِّيق ـ رضي الله عنها ـ : طُوبى لمن وجدَ في صحيفته استغفاراً كثيراً[2] .

---

(١) انظر : حلية الأولياء (١/ ٣٨٣) .
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٥٩) .

* وقال أبو المنهال : ما جاورَ عبدٌ في قبره من جارٍ أحبَّ إليه من استغفارٍ كثير .

* وقال قتادة : إنَّ هذا القرآن يدلُّكم على دائكم ودوائكم ، فأمّا داؤكم : فالذُّنوب ، وأما دواؤكم : فالاستغفار .

* وقال رباح القيسي : لي نيِّفٌ وأربعون ذنباً ، قد استغفرتُ الله لكلِّ ذنبٍ مئة ألف مرة[1] .

* وقال بعضُهم : إنَّما مُعوَّلُ المذنبين البُكاءُ والاستغفارُ ، فمن أهمَّته ذنوبه ، أكثر لها من الاستغفار .

* وكان بعضُ السَّلفِ يقولُ : لو أعلمُ أحبَّ الأعمالِ إلى الله لأجهدت نفسي فيها ؛ فرأى في منامه قائلاً يقول له : إنَّك تريدُ ما لا يكونُ ؛ إنَّ الله يحبُّ أن يغفر .

* وقال عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : عجبتُ

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٩٤) .

لمن يهلكُ والنَّجاةُ معه ؟ قيل : وما هي ؟! قال : الاستغفار[1] .

* وقال أعرابي : مَنْ أقامَ بأرضنا فليُكثر من الاستغفار ، فإنَّ مع الاستغفار القُطَّار[2] .

* وروى ابنُ أبي الدُّنيا بإسناده عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال : خياركم كلُّ مُفَتَّنٍ[3] توَّاب .

قيل : فإن عاد ؟!

قال : يستغفرُ الله ويتوب .

قيل : فإن عاد ؟!

قال : يستغفرُ اللهَ ويتوب .

---

(١) انظر : عيون الأخبار (٢/ ٣٧٢) .

(٢) عيون الأخبار (٢/ ٢٨٨) . و « القُطّار » : بالضم ، السَّحاب العظيم القطر .

(٣) « مُفتَّن » : مثل : معظَّم ومكرَّم ، الممتحن يمتحنه الله بالذنب ثم يتوب ، ثم يعود ، ثم يتوب .

قيل : فإنْ عاد ؟!

قال : يستغفرُ اللهَ ويتوب .

قيل : حتى متى ؟

قال : حتى يكونَ الشَّيطانُ هو المحسور[1] .

* وقيل للحسن البصري ـ رحمه الله ـ : ألا يستحي أحدنا من ربِّه يستغفرُ من ذنوبه ، ثم يعودُ ، ثم يستغفرُ ، ثم يعودُ ؟!

فقال : ودَّ الشَّيطان لو ظَفِرَ منكم بهذه ، فلا تملُّوا من الاستغفار .

* وروي عنه أنَّه قال : ما أرى هذا إلا من أخلاقِ المؤمنين ، يعني أنَّ المؤمنَ كلَّما أذنبَ تاب .

* وقال عمر بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في خطبته : أيُّها النّاسُ ، مَنْ ألَمَّ بذنبٍ فليستغفرِ اللهَ وليَتُبْ ، فإن عاد

---

(١) « المحسور » : هو الذي بلغ الغاية في التعب والإعياء ؛ أي : إنَّ الشيطان ييأس من إغواء الذي يدوم على التوبة .

فليستغفرِ اللهَ وليَتُبْ ، فإن عاد فليستغفرِ اللهَ وليَتُبْ ، فإنَّما هي خطايا مطوّقةٌ في أعناقِ الرِّجال ، وإنَّ الهلاكَ كلَّ الهلاك في الإصرار عليها[1] .

* * *

(١) ومعنى هذا أنَّ العبدَ لابدَّ أن يفعلَ ما قُدِّرَ عليه من الذُّنوب كما قال النَّبي ﷺ : « كُتِبَ على ابن آدم حظُّه من الزنى ، فهو مدركٌ ذلك لا محالة » أخرجه البخاري برقم (٦٢٤٣) و (٦٦١٢) ؛ ومسلم برقم (٢٦٧٥) ، وأبو داود برقم (٢١٥٢) من حديث أبي هريرة . ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعل للعبد مخرجاً مما وقع فيه من الذنوب ، ومحاهُ بالتوبةِ والاستغفار ، فإن فعلَ فقد تخلَّصَ من شرِّ الذنب ، وإن أصرَّ على الذنب هلك .

الفصلُ الثّاني

من نفحاتِ الأشعارِ في المغفرةِ

* من لطيف النَّظم في أسماء الله الحُسنى ، ما جاء في نظم اسمه « الغفّار » هذه الأبيات الجميلة :

يا مَنْ لعفوكَ يجأرُ المحتارُ ... ربُّ الخلائقِ أنتَ يا غفّارُ
نزلَتْ دموعُ العينِ تسألُ نفحةً ... من غيثِ عفوكَ تُورِقُ الأشجارُ
ربُّ البسيطةِ والسَّماءِ وما حوَتْ ... أنتَ الإلهُ الواحدُ القهّارُ
اقبَلْ لعبدكَ توبةً ينجو بها ... يا مرتجى يا ربّ يا غفّارُ

* وفي لفظ اسمه الغفور نقرأُ هذا الشِّعر الجميل :

عظيمُ السِّترِ عن عبدٍ مُسيءٍ ... يلوذُ بربِّهِ وهو الغفورُ
كثيرُ العفوِ عن آثامِ خَلْقٍ ... وكلهمو إلى ندمٍ أسيرُ

تكاثرَتِ الذُّنوبُ فليس تُحصى وكـاد القلـبُ مـن فـزعٍ يطيـرُ
ولكن ربُّه الرحمنُ يهدي إلى توبٍ هو الهادي القديرُ
عظيـمٌ غـافـرٌ أبـداً عفـوٌّ إذا ما العبدُ أقلعَ لا يجورُ
يهونُ الذَّنْبُ إذ يعفو كريمٌ وفضـلُ اللهِ لا تسـعُ البحـورُ
إلهي أنتَ تعطي دون خوفٍ وتعفـو ليـس إلاكَ الغفـورُ

* ومن نفحاتِ المغفرة ، ورشحاتِ ألباب الشُّعراء ، ما أنشده أبو نواس الشاعر العبّاسي المشهور فقال :

يا ربِّ إن عظُمَتْ ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ
إن كـان لا يـرجـوكَ إلا مُحسـنٌ فمن الذي يرجو ويدعو المجرمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرُّعاً فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحمُ
ما لي إليكَ وسيلةٌ إلاّ الرّجا وجميلُ عفوكَ ثمّ إنّي مسلمُ[1]

* إنَّ مَنْ كثُرَتْ ذنوبه وسيِّئاتُه حتى فاتت العدَّ والإحصاء ، فليستغفـرِ اللهَ ممّـا علـمَ اللهُ ، فـإنَّ الله قـد علـمَ كـلَّ شـيءٍ

(١) ديوانه (ص ٦١٨) .

وأحصاهُ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : ٦] ، وفي هذه المعاني نظم أحدُ الفُضلاءِ قصيدةً فقال :

أستغفرُ اللهَ ممّا يعلمُ الله ... إنَّ الشقيَّ لمَنْ لا يرحمُ الله
ما أحلمَ اللهَ عمّن لا يُراقبه ... كلٌّ مسيءٌ ولكن يحلمُ الله
فاستغفرِ اللهَ ممّا كان من زَلَلٍ ... طوبى لمن كفَّ عمّا يكرهُ الله
طوبى لمن حَسُنَتْ فيه سريرتُه ... طوبى لمن ينتهي عمّا نهى الله

* ومن روائع النَّظم هذه الدَّعوةُ الرَّائعةُ إلى مائدة المغفرة ، وإلى الاستغفار ، إذ الرَّحمةُ بانتظار المستغفرين :

إذا أوجعَتْكَ الذُّنوبُ فداوِها ... برفعِ يدٍ في الليل والليلُ مظلمُ
ولا تقنطنَّ من رحمةِ اللهِ إنّما ... قنوطكَ منها من ذنبكَ أعظمُ
فرحمته للمحسنين كرامةٌ ... ورحمتهُ للمذنبين تكرُّمُ

* وهذا آخرُ يناجي ربَّه مستغفراً ، ويظنُّ فيه ذلك فيقول :

يا ربِّ أنتَ رجائي ... وفيك حسَّنْتُ ظنِّي
يا ربِّ فاغفر ذنوبي ... وعافني واعْفُ عنّي

والعفـــو منـــك إلهـــي والـذَّنـبُ قـد جـاءَ منّـي
والظَّـــنُّ فيـــكَ جميـــلٌ حقِّـــقْ بحقِّـــكَ ظَنِّـــي

* وقال آخرُ يؤمّل الغفران ، وما أجمل ما أمَّل! :

أسأتُ ولم أُحسِنْ وجئتُكَ تائباً وأنّى لعبدٍ من مواليه مهربُ
يؤمِّلُ غفراناً فإن خابَ ظنُّه فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

* ولأبي نواس :

يـا كبيـر الـذَّنـبِ عفـو الـ ـلـه مـن ذنبـكَ أكبـرْ
أكبـرُ الأشيـاءِ فـي أصـ ـغـرِ عفـو اللهِ أصغـرْ
ليـس لـلإنسـانِ إلا مـا قضـى اللهُ وقـدَّرْ
ليـس للمخلـوقِ تـدبيـ ـرٌ بـلِ اللهُ المُـدبِّـرْ

* إنَّ الأشعار كثيرةٌ ورائعةٌ في هذا المجال ، ولكنّا اكتفينا بما رقَّ وراقَ لنا من محاسنها ورقائقها ؛ ومن أراد الاستزادة في هذا المجال ، فالمصادر حافظة لذلك ، ناهيك فالدواوين العديدة المتنوعة التي تحفلُ بكثير من قصائد المناجاة والاستغفار ، ولعلّ ديوان أبي العتاهية من أحفل الدواوين في هذا المضمار .

الفصلُ الثَّالثُ

من أنسامِ الاستغفارِ في مُناجاةِ الصَّالحين

* في همساتِ الصَّالحينَ وأنفاسهم عبقاتٌ نديَّاتٌ ، تهبُّ بأنسامها اللطيفة على القلوب ، فتغرس فيها ودَّ الودود ، وتندّي حنايانا بأرقِّ ما جادت به همساتهم من استغفارٍ ممزوجٍ بنديّ الدُّعاء .

* فالاستغفارُ من أعظمِ أسبابِ المغفرة ، والاستغفار ختامُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها ، فتُختَمُ به الصَّلاةُ والحجّ وقيامُ الليل ، ويُختَمُ به كذلك المجالس ، وصيامُ رمضان ، فالاستغفارُ يرفو الخروقَ بمخيط الحسنات ، فما أجملَ هذا وما أعظمه!! ؛ فكيف إذا كان من قلوبٍ صافيةٍ جعلتِ الألسنة دليلاً عليها بكثرة الدُّعاء والاستغفار .

* وممّا جاء في هذا المقام ـ وهو واسع ـ ما روي عن وهب بن منبه قال : كان داود ـ عليه السَّلام ـ إذا دعا في جوف الليل قال : اللهمَّ نامتِ العيونُ ، وغارتِ النُّجومُ ، وأنتَ حيٌّ قيُّوم ، اغفر لي ذنبي العظيم ، إنّك عظيم ، وإنّما يغفرُ العظيمَ العظيمُ[1] .

* ومن دعاء بعض الصَّالحين في المغفرة والاستغفار :

اللهمَّ إنّي أستغفرُكَ من كلِّ ذنبٍ قوي عليه بدني بعافيتك ، ونالَتْه يدي بفَضْلِ نعمتكَ ، وانبسطَت إليه بسعة رزقك ، واحتجبتُ فيه عن النّاسِ بسَتْرِكَ ، واتَّكلتُ فيه على أناتك وحلمكَ ، وعوَّلتُ فيه على كريم عفوكَ[2] .

* ومن همساتِ الاستغفارِ في دعاء الصَّالحين ما جاء عن الأوزاعي أنَّه قال : مَنْ قال : اللهمَّ إنّي أستغفرُكَ لما تُبْتُ إليك منه ثمَّ عدتُ فيه ، وأستغفركَ لما وعدتُكَ من نفسي

---

(١) عيون الأخبار (٢/ ٢٨٣) .
(٢) عيون الأخبار (٢/ ٢٨٩) .

وأخلفتُكَ ، وأستغفركَ لما أردتُ به وجهكَ فخالَطَهُ ما ليس لك ، وأستغفركَ للنِّعمِ التي أنعمتَ بها عليَّ فتقوَّيتُ بها على معصيتكَ ، وأستغفركَ لكلِّ ذنبٍ أذنبتُه ، أو معصيةٍ ارتكبتُها ؛ غَفَرَ اللهُ له ولو كانت ذنوبُه عددَ ورقِ الشّجر ورمل عالج[1] ، وقطر السّماء .

* وبعدُ ؛ عزيزي القارىء ، فقد كانت رحلتنا طيِّبة النشر ، ونحن نجني جنى الرَّيحان من جنَّاتها الميمونة ، ونأملُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا ، وأن يُكفِّرَ عنّا سيِّئاتنا ، ويدخلنا الجنّة مع الأبرار .

* وأرجو من القارىء الكريم ، أن يخصّني بدعوةٍ منه بظهر الغيب ، فعسى أن يرحمني ربي بذلك .

* اللهمَّ إنّا نتوبُ إليكَ ونستغفركَ ، ونؤمنُ بكَ ونتوكَّلُ عليكَ .

---

(١) « عالج » : بكسر اللام : موضع بالبادية به رملٌ متراكم ومتداخل بعضُه في بعض .

* اللهمَّ اختمْ بالصَّالحاتِ أعمالَنا ، واهدِنا إلى القولِ الحَسَن الذي يُرضيكَ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* * *

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

الباب الأول: المغفرة في أفياء كتاب الله وأسمائه الحسنى ٩

الفصل الأول: المغفرة في رحاب القرآن واللغة ١١

الفصل الثاني: الله الغافر والغفور والغفار ٢٠

الفصل الثالث: من معاني اسم الله الغافر ٢٣

الفصل الرابع: من ثمرات اسم الله: الغافر والغفور والغفار ٢٦

الباب الثاني: من نفحات المغفرة في كتاب الله ٣١

الفصل الأول: المغفرة رحمة إلهية ٣٣

الفصل الثاني: من نفحات سورة غافر ٣٧

الباب الثالث: فوائد المغفرة في قصص القرآن الكريم ٤٣
الفصل الأول: أنسام المغفرة في القصص القرآني ٤٥
الفصل الثاني: دعوة إلى مائدة المغفرة ٤٩

الباب الرابع: المغفرة في حياة الرسل وأخبارهم ٥٣
الفصل الأول: قصة المغفرة في حياة آدم عليه السلام ٥٥
الفصل الثاني: قصة نبي الله نوح في طلب المغفرة ٦١
الفصل الثالث: قصة استغفار نبي الله إبراهيم لأبيه ٦٦
الفصل الرابع: قصة المغفرة في حياة نبي الله يوسف وإخوته ٧٤
الفصل الخامس: نبي الله موسى ومغفرة الغفور الرحيم .. ٨٥

الباب الخامس: المغفرة في الهدي النبوي ٩٥
الفصل الأول: المغفرة والاستغفار في التربية النبوية ٩٧
الفصل الثاني: كيف دعا الهدي النبوي إلى المغفرة؟ ... ١٠٠

الباب السابع: من دروس المغفرة في السيرة النبوية وحياة الصحابة ١٠٥
الفصل الأول: ﴿يغفر الله لكم﴾ ١٠٧

الفصل الثاني: استغفار أبي سفيان وفضالة بن عمير ... ١١١
الفصل الثالث: غفر الله لك ١١٥
الفصل الرابع: أم حذيفة بن اليمان وطلبها الاستغفار
من النبي ﷺ ١١٨

الباب السابع: المغفرة في الحديث النبوي بين العظة والعبرة ١٢١
الفصل الأول: إن الله قد غفر للكفل ١٢٣
الفصل الثاني: غفرت لعبدي ١٢٧

الباب الثامن: من نفحات المغفرة وأسبابها ١٣١
الفصل الأول: محاسن الاستغفار ومكارم المغفرة ١٣٣
الفصل الثاني: أسباب المغفرة ١٣٥
الفصل الثالث: خطأ في فهم الاستغفار ١٤٢

الباب التاسع: مفاهيم حول المغفرة ١٤٧
الفصل الأول: الاستغفار والتوبة ١٤٩
الفصل الثاني: الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ١٥٣
الفصل الثالث: صلة المغفرة بفضائل المكارم ١٥٧

الباب العاشر: من أنداء المغفرة وأنسامها ١٦١
الفصل الأول: من رقائق الأقوال في المغفرة والاستغفار ١٦٣
الفصل الثاني: من نفحات الأشعار في المغفرة ١٧٠
الفصل الثالث: من أنسام الاستغفار في مناجاة الصالحين ١٧٤
فهرس الموضوعات ١٧٩

* * *